

عن الأثم والعدوان وبذلك أعلا الله قدرهم في الدنيا وأعد لهم في الآخرة جنات النعيم .
فالمسلمون الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه يحب عليهم أن ينزعوا من صدورهم العداوة
والبغضاء ويطهروا أنفسهم من الضغائن والأحقاد . فمن غلبت عليه طبيعته ووجد من نفسه بغضاً
لواحد من خلق الله وجب عليه أن يكف عنه يده ولسانه وأن يعالج نفسه حتى تبرأ من هذه النصفة
التي نهى الله عنها ورسوله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تناطعوا ولا
تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه أحمد والبخاري ومسلم
هذه هي آداب الاسلام وتعاليم الكريمة التي لا يفاج من حاد عنها . ولا يسعد من خالفها .
ولا يشقى من تمسك بها . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعها في كل شأن من شئونها ويهدينا الى
سبيلها القويم وطريقها المستقيم ويقينا شر الحسد وغوائله إنه بعباده رؤوف رحيم

الباب الثالث

في ذكر بعض صفات النفس الممدوحة

تمهيد

قد علمت في أول الكتاب أن الانسان مركب من أمرين . أحدهما الجسم المادى والمواقف من
العناصر المختلفة . والثاني العقل وإن شئت فسمه بالنفس أو الروح . وهو الذى يمتاز به الانسان
عن الحيوان وبه يدرك الخير والشر ويعرف الفضيلة والرذيلة . وما سوى العقل من وجدان وحس
باطن وظاهر فانه عون للعقل على ذلك الادراك .

فالانسان يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم وهذا خير وذاك شر بالبراهين التي يرتب العقل
مقدماتها مما يصل إلى الخواص الباطنة والظاهرة من المشاهدات والتجارب والأخبار الصادقة
والنظر في أراء الأمم وأحوال الناس . على أن العقل الانسانى مهما أوتى من قوة فانه يصيب ويخطئ
فلا بد له من الاستناد إلى قوة معصومة من الخطأ حتى يكون حكمه صحيحاً دائماً . وتلك القوة هي
قوة الوحي الالهى الذى أشار الله تعالى اليه بقوله (ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو
الا وحي يوحى) فعند ماضل العقول وتشبهه عليها الأدلة وتضطرب لديها المقدمات ترجع الى ميزان
الوحي فهتدى وتنظر فيما أتى به الدين فتسكن لأنه من لدن عليم خبير لا تخفى عليه خافية من خلقه .
ولا بأنيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه . فما يأمر به الدين فهو فضيلة . وما ينهى عنه فهو رذيلة
وما يستحبه فهو شر . وما يستحسنه فهو خير .

هذا هو الذى يعول عليه المسلمون الذين يعرفون حقيقة الاسلام . ويعلمون أنه لم يترك فضيلة من الفضائل عند ذوى العقول السليمة الا أمر بها وحث عليها . ولم يدع رذيلة من الرذائل الا نهى عنها ونهى عليها . ولم يأمر بشيء أو ينه عنه الا اذا كان فى فعله . أو تركه مصلحة تعود على الأفراد والجماعات . وهو مع هذا لم يخطر على العقول أن تنظر فيما جاء به . بل جعل لها مجالا واسعا فى النظر والاستدلال والبحث والتفكير وشجع الباحثين على استنباط ما فيه المصلحة للناس بالوعد الكريم . لجعل لهم على بحوثهم أجراً عند ربهم حتى ولو أخطأوا فى اجتهادهم مادامت النية الصالحة موجودة . وما دام الواحد منهم قد بذل منتهى الجهد وأقصاه بشرط أن لا يخرج عن قواعد الدين العامة وأن لا يصطدم بأصوله المتفق عليها من كتاب وسنة واجماع يرتكز على الكتاب والسنة لأن الخروج على تلك الأصول هو ضلال العقل الذى ذكرنا فاذا رجع الى تلك القواعد وأعاد النظر فيها المرة بعد المرة وتأمل فيما يشته فيه من أمرها فانه لا بد أن يهتدى الى الصواب وبدرك أن علة اشتباهه ترجع الى عدم دقة النظر وعدم فهم المقدمات .

ومن هذا تعلم أن العقل هو الذى يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم معتصداً فى ذلك الحكم بالدين ومستندا اليه فى كل شأن من الشؤون . وإن شئت فقل إن العقل يحكم بقضايا الدين فاذا خرج العقل عن قواعد الدين فقد ضل وغوى . ويمكنك أن تستفيد من مجموع ما تقدم فائدتان .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الدين الاسلامى انما يحكم على الأشياء بالمدح والذم باعتبار ما يترتب عليها من المنافع والمضار التى تعود على الأفراد والجماعات لأن كل تشريعه مبنى على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . فما يترتب عليه المصلحة فهو حسن ممدوح . وما يترتب عليه مفسدة فهو قبيح مذموم . واذا تعارضت المصلحة مع المفسدة قدم درء المفسدة على جلب المصلحة . ويؤخذ من هذا أن الحكم على الشيء بأنه خير أو شر . فضيلة أو رذيلة ليس باعتبار ذاته بل باعتبار ما يترتب عليه من المنافع والمضار . فالصدق فضيلة والكذب رذيلة . ولكن اذا ترتب على الكذب خير يعود على الفرد والجماعة . وترتب على الصدق ضرر فان كان ذلك الضرر يعادل لثم جريمة الكذب أو يفوقها كما اذا كان يترتب عليه اذهاق نفس أو هزيمة جيش . فان الشريعة الاسلامية تحتم الاخبار بغير الواقع دفعا لمفسدة قتل النفس وإذلال الأمة بهزيمة جيشها . اذ ليس الاخبار بالواقع فضيلة فى ذاته . بل باعتبار ما يترتب عليه من تحصيل المنافع ودفع المضار التى بينها لك فى مبحثه . وهكذا فى سائر الأمور

ومعنى هذا أن الانسان إذا طلب الفضيلة لينال من وراثتها منفعة شخصية أو منفعة عامة كان ذلك جائزاً فى نظر الدين . وهو كذلك لأن الله تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خادين فيها أبداً ووعدده سبحانه لا بد أن يتحقق كما قال (إن الله لا يخلف الميعاد) وقال (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله) الى غير ذلك من الآيات الصريحة فى أن وعده لا يخلف . فمن تمسك بالفضائل التى أمر بها الدين واجتنب الرذائل التى نهى عنها . ليحيا فى الدنيا حياة طيبة . ويعيش عيشة هنيئة ويظفر فى الآخرة بالسعادة وهى النعيم الخالد والملك المقيم . فهو ممدوح كل

المدح وهذا يؤيد قول من يقول ان الانسان لا يطلب الفضيلة الا لما يترتب عليها من منفعة عامة أو منفعة شخصية . والأول يسمى مذهب السعادة العامة . والثاني يسمى مذهب السعادة الشخصية إلا أن الدين الاسلامي يشترط في المنفعة أن لا تتعارض مع قواعده فلا يترتب عليها اخلال بحقوق الناس أو بحقوق الله والا كانت الفضيلة التي تترتب عليها المنفعة رذيلة في نظر الدين

هذا هو الرأي السديد وما سواه فهو زخرفة في القول واحلال للنظريات محل العماليات . فمن قال ان الفضيلة تطالب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المنافع والذات . وإن الرذيلة تختبئ لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المصاير والآلام لا يريد الا أن يبالغ في تنزيه الانسان . أو ينمى أمنية محبوبة للنفس وهي أن الانسان ينبغي له أن لا يحفل بنعيم ولا شقاء . ولا يبالي بمنفعة ولا مضرة بل يسمى لما يعتقد أنه فضيلة بفطرته . فانه أرقى من أن تبعثه اللذة ويمنعه الألم ويسمى هذا مذهب اللقاة — البصيرة — والواقع أنه مذهب غير عملي لا ينطبق على فطرة الانسان ولا يمكن أن يقع في الوجود . اللهم الا اذا خاق الانسان خاقاً جديداً . وذلك لأنه لا ريب في أن الناس مسوقون في هذه الحياة بعوامل اللذة والألم فلا يخطو الواحد منهم خطوة ولا يتحرك حركة الا اذا اعتقد أن من وراءها خيراً له ومنفعة تعود عليه . ولقد علم الله سبحانه ذلك من طبيعة عباده . فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين يرغبون أهل الفناء في الجنة ويحذرون أهل الرذائل من النار وجاءت الشريعة الاسلامية لتبين للناس حدود الخير والشر وما يجب على الانسان وما يجوز تحصيله من المنافع الشخصية والمنافع العامة . وعرفت كل واحد ماله وما عليه من الحقوق لنفسه ولغيره من الأفراد والجماعة كما سيأتيك بيانه مفصلاً في الجزء الثاني في الواجبات الدينية ان شاء الله

ووعدت من اتبع ارشادها وعمل بما جاءت به بأن ينال من اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأن يحظى في اليوم الآخر بكل ما تشتهي نفسه وتقر به عينه من نعيم دائم وسعادة خالدة فضلاً عما يظفر به من حياة طيبة في الدنيا خالية من الأمراض النفسية والبدنية وقائمة على رفعة القدر وسمو المنزلة . كل ذلك ليعمل الناس بما تقتضيه الفضائل وينتهوا عما تتطلبه الرذائل . ولا سبيل للحلم على ترك المنافع والذات التي تنافي الفضيلة الا بتخويفهم من عاقبة أمرها ووعدهم على الصبر على هجرها بلذات دائمة مستمرة . لا يعقبها غناء . ولا يتبعها ندم . ولا تساوى لذات الدنيا الى جانبها شيئاً .

ولقد كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يتعمنون القتل في سبيل الله ليظفروا بالنعيم الخالد وكانوا يقولون (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة) وليس بعد القتل ألم ولكنه أصبح لذة لما يعقبه من سعادة دائمة ونعيم خالد وهكذا في كل شأن من الشؤون . فان الناس لا يعملون الا طمعاً في الخير وفراراً من الشر أو بالتألي طمعاً في الثواب وفراراً من العقاب .

لعلك تقول ان من قواعد الاسلام الاخلاص في العمل لله تعالى وهذا يستلزم أن يعبد لذاته وطاع من غير شرط ولا قيد . ولهذا نقل عن بعض العباد أنهم كانوا يقولون اننا لا نعبد الله خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة واذا كانت نتيجة عبادتنا ذلك فقد خسرنا وهذا القول صحيح من بعض نواحيه لأن الذي يعمل على مرضاة سيده بدون أن ينتظر جزاء أكرم وأعز من الذي ينتظر

الأجر . وأن الذى يخلص لحبيبه الطاعة حتى ولو عذبه لا يقاس بالذى يعمل لياخذ جزاء . ولكن اذا حللت المسألة تحليلا دقيقا . علمت أن المتخاصين فى الواقع يطلبون جزاء أكبر ولذة أعلى لانهم انما يطلبون بذلك مرضاة الحبيب وهذا أكبر أجر لان من يرضى القادر الذى يده مكافأة العاملين فانه يكون له من الجزاء أكبر حظ . وأوفر نصيب . فاذا بحثت حال العباد الذين راضوا أنفسهم وتجردوا عن كل اللذات الجثمانية وهجروا جميع الشهوات الحيوانية فانك تجدهم لم يفعلوا ذلك الا لما يتغونه من لذة أكبر مما هجروه وسعادة حسية أو معنوية يقدرّون الوصول اليها من هذه الطريق وأقربا انكشاف الحقائق العلية . وأعلها مرضاة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم أما الاخلاص فانه لا ينافى ذلك لأن معناه أن يعبد لالغرض يطلبه من غيره . أما اذا كان يعبد وحده ليرضى ويجزل له العطاء فان هذا نهاية الاخلاص . ولئن كانت الشريعة قد حثت على الاخلاص فانها قد وعدت عليه أحسن الوعود ورتبت عليه أحسن الجزاء فى دار النعيم وجملة القول فى ذلك أن على الانسان أن يطلب الفضائل التى أمر بها الدين وحث عليها . ويبتعد الرذائل التى نهى عنها ابتغاء مرضاة ربه لا لغرض من أغراض الدنيا ولا اشهوة من شهواتها التى لا يقرها الدين كما علمت فى مبحث الرياء . أما اذا كان غرضه من عمله ما عنده الله من نعيم الجنة فانه حسن ممدوح بلا نزاع . فان كانت ملاحظته ذلك تشجعه على العمل وتعينه عليه كان ذلك واجبا .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ ان حكمه على الأشخاص بالمدح والذم انما هو باعتبار مقاصدهم ونواياهم كما قال صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » فمن قصد الى عمل خير قصدا صحيحا يريد به وجه الله تعالى واستمسك بكل الوسائل الموصلة اليه بدون تقصير ولا اهمال . ثم ترتب عليه شر فانه يكون ممدوحا . ومن قصد الى شر فترتب عليه خير فانه يكون مذموما . مثلا المجتهد الذى ينوى الوصول الى الحق فى مسألة من المسائل ثم استمسك بجميع الوسائل التى توصله الى غرضه وبذل أقصى جهده فى ذلك ولكنه أخطأ ووصل بمقدماته الى عكس المطلوب فانه يكون ممدوحا ويثاب على نيته وما بذله من مجهود . ومثله الطبيب الذى يبذل أقصى جهده فى معالجة مريض ثم يخطئ فى وصف الدواء فيترتب عليه هلاك المريض فانه يكون ممدوحا . وانما يذم اذا أهمل فى العناية المطلوبة منه . وعلى العكس من ذلك . اذا أراد شخص غش آخر وايداه فأشار عليه بسلوك طريق يظن أن فى سلوكه إيياها هلاكة فسلوكها فظفر فيها بكىز أو كانت سببا فى نجاته من شر فانه يكون مذموما باعتبار قصده ونيته . فالعبرة انما هى بالنية على كل حال .

واذا علمت هذا فانك تستغنى به عن الأبحاث الكثيرة والخلافات المتشعبة فى البحث عما تعرف به الفضيلة والرذيلة ويدرك به الخير والشر . فان ذلك أمر قد فرغ منه بما قرره الدين وأجمع عليه أرباب العقول السليمة .

ومن أجل ذلك اضربنا صفحا عن كل ما قيل فى هذا . لأنه ليس من غرض الدين . وانما غرض الدين معرفة ما يمدحه الدين وما يذمه وما يأمر به وينهى عنه . فما يأمر به ويمدحه فهو الفضيلة . وما يذمه وينهى عنه فهو الرذيلة . فالفضيلة فى نظر الدين الخالق الحسن

الذى يترتب عليه آثار صالحة . والرديلة الخلق السيئ الذى يترتب عليه آثار سئمة . وقد قدمنا لك معظم الاخلاق الصالحة وصددها فى البابين السابقين فلنذكر فى هذا الباب طائفة من الصفات الفاضلة التى فاتنا ذكرها هناك مبتدئين منها — بالعدل — لانه أساس الفضائل

العدل

هو التوسط بين طارفى الافراط والتفريط فى ثلاث قوى . القوة الاولى الشهوية . القوة الثانية الغضبية . القوة الثالثة العقلية . فاعتدال هذه القوى هو العدل . واقصد ذكرنا لك فى بابى الشهوة والغضب ما يمكنك أن تعرف منه ذلك حق المعرفة . فان من يتوسط فى شهوته البهيمية وغضبه فلا ريب فى أنه يكون عادلا مع غيره ومع نفسه فأما عدله مع غيره فلأن التوسط فى الشهوة البهيمية هو العفة المتوسطة بين الخلاعة والجود . والتوسط فى الغضب هو الشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ومن كان كذلك فانه ينصرف عن اذاء الناس وظلمهم فى أعراضهم واموالهم وانفسهم ويحمله على اعطاء كل ذى حق حقه . وأما عدله مع نفسه فلانه يستمتع بالحلال الطيب من رزق الله وينجو من عار الجبن وعدم الميرة على عرضه وماله ودينه ويسلم من فضائح الشهوة . كل ذلك فى الدنيا وله فى الآخرة أحسن الجزاء

وأما القوة العقلية فاعتدالها معناه الحكمة وهى متوسطة بين البلادة والغرور وهى تتناول حكمة الاعتقاد . وحكمة العمل . وحكمة الاخلاق . فاما حكمة الاعتقاد فمها توحيد الله تعالى وتزبيحه عن كل مالا يليق به وهو متوسط بين رذيلتين . نقي الألوهية رأسا كما تقول الدهرية او اعتقاد الآهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . واما حكمة العمل فمها اداء الواجبات بلا افراط أو تفريط وهو متوسط بين ترك العمل رأسا أو المبالغة فيه كما اذا ترك المباحات تشبها بالرهبان وأما الحكمة الاخلاقية فمها كالجود المتوسط بين الاسراف والشح ونحوه مما قدمناه لك فمن اعتدلت فيه هذه القوى الثلاث كان عادلا حقا

وتفسير العدل بهذا المعنى أحسن ما يفسر به ومنه يؤخذ أن العدل رأس الفضائل وأساس الخير وأن الظلم منبع الرذائل ومصدر الشرور وهو يؤيد من يقول ان أساس الفضائل خضوع الشهوة والغضب للعقل فمن جعل لعقله سلطانا كاملا عليها فلم يفرط ولم يفرط بل اتبع سبيلا وسطا فقد ملك زمام الفضائل وهذا الرأى هو اسد الآراء التى ذكرت فى هذا الموضوع واقربها للصواب . وقد اعترض عليه بعض الناظرين بأن بعض الصفات النفسية لا يظهر لها طرفان كالعدل فانه ليس هناك سوى عدل وظلم فلم يكن العدل وسطا بين رذيلتين مع أن هذا المذهب يستلزم أن كل فضيلة بمدوحة لا تكون الا بين طرفين مذمومين . وأيضا فان بعض الصفات لا يظهر كونها وسطا لكونها أقرب الى أحد الطرفين من الطرف الآخر كالشجاعة فانها أقرب الى التهور منها الى الجبن وكالكرم فانه أقرب

الى الاسراف منه الى الشح . والاعتراضان ساقطان أما الأول فلأنك قد علمت أن العدل هو نفس الوسط المعتدل فالمعترض فسر به بغير ما يراد منه ومثله غيره من الصفات النفسية التي لا يظهر لها طرفان عند بعض الناظرين . وأما الثاني فليس المراد أن تكون الأبعاد متساوية من جميع الجهات وأن تكون الفضيلة موجودة في حاق الوسط — أى وسط الوسط — بالدقة بل المراد أن يكون لها طرفان مذمومان ولو كانت الى احدهما أقرب من الآخر

وبعضهم يقول ان اساس الفضائل هو المعرفة الصحيحة فمن عرف أن هذا حق وذلك شر فانه ينبعث الى فعل الخير وترك الشر فما يقع من المظالم والشرور فهو نتيجة الجهل أما ما نراه من وقوع الشر من العالم به فذلك لأنه لم يعلم به على وجه صحيح ولم تتأثر به نفسه حقاً . ألا ترى أن من علم أن في هذا الجحر تبعاناً لا يفتن يده فيه والواقع أن هذه سفسة ظاهرة لان العلم لا يستلزم العمل بلا نزاع واما ما ذكره من أن العالم بالتبعان لا يقدم عليه فذلك لأن ضرره عاجل لم يعارض بلذة أخرى ولم يحل بعلة تسهل فعله فهذا القول خطأ واضح

هذا وقد فسر بعضهم العدل بتفاسير أخرى غير مذكورنا ولكنها كلها ترجع الى هذا التفسير فمن ذلك ما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه دعا ببعض العلماء وطلب منه أن يصف له العدل فقال له كن لصغير الناس أباً ولأكبيرهم ابناً وللدليل منهم أخاً وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن لعضبك سوطاً واحداً فتكون من العالمين . وبديهي أن ذلك يرجع الى اعتدال بعض القوى التي ذكرناها آنفاً ومثله ما نقل عن بعضهم من أن العدل استواء السريرة العلانية في العمل فان كان عمله الظاهري مطابقاً لاعتقاده وكان اعتقاده صحيحاً فقد اعتدلت فيه قوة الاعتقاد وقوة العمل وهكذا

اقسام العدل

ينقسم العدل الى ثلاثة اقسام عدل المرء مع نفسه وعدله مع غيره وذلك الغير اما أن يكون فرداً أو جماعة فاما عدله مع نفسه فقد علمت أنه سلوك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل فلا يتمرد على الله تعالى ورسله ولا يخرج عن البراهين الصحيحة ولا يلقى بنفسه في تيار الشوات الفاتلة ولا يطيع غيه وهواد وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من امراض الشهوات البدنية والعقلية وبقى نفسه نارا وقودها الناس والحجارة يوم يقوم الناس لرب العالمين ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وعرضها للهلاك والخسران في الدنيا والآخرة

أما عدله مع غيره فانه يترتب عليه تلك النتيجة التي ذكرناها وهي السلامة في الدنيا من شرور الناس وحقدهم عليه والأمن على نفسه واهله وما أنعم الله عليه من نعم في دار الدنيا والنجاة من هول يوم القيامة والسعادة الخالدة في دار النعيم وله أمثلة كثيرة نسكتفي بذكر المهم منها هنا

المثال الاول . عدل ولاة الأمور مع رعيّتهم وهو أهم أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً لأنه يترتب عليه سعادة المجتمع وصلاح أفراده فإن الحاكم العادل لا يقصر في شيء من واجبه مع رعيّته ولا يهمل شيئاً يرقى أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ويكون لهم مثلاً أعلى في معاملة بعضهم بعضاً بالعدل والانصاف . فالحاكم كالقلب من الجسد إذا صلح صلح وإذا فسد فسد كما ورد في الصحيح فلماذا كانت مسئولية ولاة الأمور عظيمة في نظر الشريعة الاسلامية وقد حذر منها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام تحذيراً شديداً

روى عن أبي ذر رضى الله عنه « قال قلت يا رسول الله ألا تستعمنى قال فضرِبَ بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذ بحقها وأدى الذي عليه فيها » رواه مسلم

وحقها في نظر الدين أن يقوم بكل شيء فيه مصلحة المحكومين . قال سيدنا عمر والله لو عثرت بغلة في العراق لوجدتني مسئولاً عنها فقليل لماذا يا أمير المؤمنين فقال لأنني مكلف باصلاح الطريق . هذا مثال الحاكم العادل ولهذا جعل الله له فضلاً عظيماً وميزة كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شعاله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

ولقد اشتمل هذا الحديث الشريف على جميع الكالات الانسانية فالامام العادل هو الذى تنصلح به رعيّته ويستقيم به امر دينها ودنياها وهو اعظم السبعة قدراً وأجلهم منزلة ومن أجل هذا بدأ به عليه الصلاة والسلام . وأما الشاب الذى نشأ في طاعة الله فهو خير لنفسه ولغيره لأن من يعود العمل الصالح لا تطفئ عليه شهوته فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما الذى قلبه معلق بالمساجد ليوذى فيها الصلاة التى فرضها الله عليه في اوقاتها ويحرص على عمارتها فإن صلاته تنهيه عن الفحشاء والمنكر لأن من يتعلق بالمساجد لا بد أن يكون ذلك ناشئاً من خشية الله تعالى ومن شعر قلبه بخشية ربه وصلى له خاشعاً خاضعاً فانه لا محالة ينتهى عن الفحشاء والمنكر فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما المحبة في الله تعالى فعناها التعاون على البر والتقوى فمن أحب غيره لهذا الغرض فقد خدم نفسه وخدم الناس اجل خدمة . وأما الذى دعته امرأة ذات حسب وجمال لنفسها فامتنع خوفاً من الله فهو ذلك الرجل الذى ملك شهوته وجعل لعقله عليها سلطاناً عظيماً فهو امين على عرضه وعلى أعراض الناس وجدير أن تكون له تلك المنزلة . وأما الذى يتصدق بصدقات خفية فهو ذلك الرجل الذى هو خير وبركة على عباد الله فانه يغيب المكروب ويطعم البائس والمضطرب ولا يجب أن يمين على الفقير فيؤذيه بمنه ولا يجب أن يعمل رأى الناس فإن مدحوه فعل وإن لم يمدحوه ترك ومثل هذا جدير برضاء الله تعالى وحسن جزائه . وأما الذى تفيض عيناه عند ذكر ربه فهو المؤمن حقاً الذى قال الله فيه (إنا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)

فهؤلاء السبعة جديرون برحمة ربهم واحسانه واهل لأن يقيمهم الله تعالى هول يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد

ويتبع عدل الولاية والسلاطين عدل القضاة والشهود وهو أهم ركن تقوم عليه سعادة المجتمع وينبني عليه أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأنفسهم فإذا جار القاضي ولم يقسط الشهود فإن النظام يختل وتسود الفوضى ولهذا كانت مسئولية القاضي شديدة في نظر الاسلام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به . ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار . ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه

فالقاضي المدوح في نظر الدين هو الذي يعرف الحق ويقضى به فاما معرفة الحق فانها تحتاج الى مجهود عظيم وبحث في كل الظروف والاحوال المحيطة بالخصوم واما الحكم بالحق فانه يحتاج الى مجاهدة عظيمة حتى يتنزه القاضي عن التحيز والميل مع أقربائه أو أصدقائه أو من تربطه معهم رابطة أو تجمعهم معهم جامعة أو يكون له في الميل غرض يناله من مال أو منصب أو شهوة . فالقاضي لا ينبغي إلا إذا كان بالنسبة إلى الخصوم كالميزان المضبط . فلا يميل مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق . ومن لم يفعل ذلك فانه يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ولي القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ورواه غيره ومعنى الحديث أنه عرض نفسه للهلاك والعذاب الأليم . وهذا إن لم يقض بالحق كما تقدم في الحديث الأول .

وبديهي أن الركن الأعظم الذي يعرف القاضي به الحق هم الشهود فإذا تحيزوا وشهدوا زورا وضلوا القاضي فقد احتملوا كل هذه المسئولية وكانوا من أشقى الخلق وأتعسهم عند الله وعند عباده من أجل ذلك قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)

قوامين . مواظبين على العدل في جميع الشئون والاحوال فلا يحل لكم أن تتخلفوا عنه في أي حال . شهداء لله . تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله تعالى فلا تحمِلُكم الأغراض الدنيوية على التحيز وشهادة الزور . ولو على أنفسكم . مبالغة في الحث على أداء الشهادة على وجهها لأن الشهادة لا تقع من الانسان على نفسه . وإنما الذي يقع منه يسمى إقراراً إلا إذا أريد بالشهادة بيان الحق مطلقاً فتشمل الإقرار . أو الوالدين والأقربين . رأى بعض أئمة المسلمين أن شهادة الولد لوالديه وبالعكس جائزة أخذاً من هذه الآية . ولقد روى بعضهم أن سلف المسلمين كانوا على ذلك حتى تغيرت أخلاق الناس فعدلوا عن ذلك . وقد علمت أن الغرض انما هو المبالغة في الحث على قول الحق . فلا

يلزم منه ما ذكر . وقوله إن يكن غنياً أو فقيراً . معناه أن الشاهد ينبغي أن لا يلتفت لأى سبب من الأسباب الموجبة للتحيز سواء كانت صلة قرابة أو كانت عاطفة شفقة أو رحمة كما إذا خشى أن يشهد على فقير فيضره في ماله أو كانت هبة وخوفاً من غنى . أو غير ذلك . بل يجب على الشاهد أن لا يعرف في هذا المقام سوى الله تعالى الذى يأمره بأن لا يتثنى عن قول الحق قيد شعرة . فلا تحملكم أهواؤكم وأغراضكم على أن لا تعدلوا في حقوق الناس . وإن تلوا . أستمعتم فلا تأتوا بالشهادة على وجهها . أو تعرضوا . عن أداء الشهادة رأساً . فإن الله كان بما تعملون خبيراً . فيجزىكم على ما عصيته .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) لا يجرمنكم . لا يحملنكم . شنآن قوم . شدة بغضكم لهم . على أن لا تعدلوا . في حقوقهم . اعدلوا . أيها المؤمنون في أعدائكم وأوليائكم فإن العدل . هو أقرب للتقوى . أى أدخل في مناسبتها وأشد الأمور شبهها لأن التقوى نهاية الطاعة والعدل أساس الفضائل

فهذا قول الله وقول رسوله في الحث على عدل ولاة الأمور والقضاة والشهود . فعلى المسلمين أن يعملوا به وأن يقبوه في كل أمورهم ليظفروا بالسعادة في الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين المشال الثاني : عدل رؤساء الأسر والقبائل . فاذا وفق رئيس أسرة أو زعيم قوم إلى إقامة العدل بينهم فانه يحيا معهم حياة طيبة مباركة ويعيش هو وهم عيشة راضية مرضية . فان عدل الرئيس يوجب استمرار روابط المودة والوثام بينه وبينهم من جهة وبينهم وبين بعضهم من الجهة الأخرى فضلا عما يترتب على ذلك من اقتدائهم به قدوة حسنة . فانه يكون مثالا صالحا للصغير والكبير فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ويعامل الكبير الناس بالعدل . وبذلك يكتبون شر المظالم الداخلية والخارجية .

أما إذا كان الرئيس ظالما فانه يكون شراً ووبالا على نفسه وعلى مرؤسيه فان المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه لأجله فتقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة ويمعن كل واحد في الاضرار بالآخر . فضلا عما يسرى لهم من خاق الظلم فيسلطون على خاق الله فيظلمونهم كما ظلمهم وبذلك يكونون من أشقى خلق الله

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مسئول عن العدل في ذلك العمل وليس العدل قاصراً على السلاطين وولاة الأمور . فقال عليه الصلاة والسلام « كلحكم راع ومسئول عن رعيته . الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيته . والخدام راع في مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم . وهذا الحديث صريح في أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال . فريئس الأسرة والقبيلة يجب عليه أن يعمل على تحقيق العدل بينهم . فلا يظلمهم في مطعم أو مشرب أو مسكن ولا يدين هذا ويقصى ذاك بدون سبب يستدعى ذلك من عقوبة على ذنب ومكافأة على خير . ولا يهمل أمر تربيتهم

وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات . ولا يقصر مع واحد منهم في تعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه . ولا يذرهم يعتدون على أموال الناس أو أعراضهم . ويتعبد تهذيب نفوسهم وإصلاح أخلاقهم . فإذا ترك الرئيس شيئا من ذلك فإنه يكون ظالما مسئولاً عن تقصيره هذا وعن كل ما يترتب عليه من المآثم بين يدي أحكم الحاكمين الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة وسيجزى الناس على أعمالهم يوم يبعثون

وأما المرأة فإنها مسئولة عن تدبير منزلها بما يوافق حال زوجها . فلا ترهقه في الاتفاق ولا تظلمه بطلب مالا يقدر عليه ولا تخونه في عرضه . ولا تفعل ما يؤذيه . وكذلك يجب عليها أن تعدل بين أبنائها فيما بين يديها من طعام وشراب . فلا تفضل واحداً على صاحبه من غير حق بل تعطى كل واحد ما يناسبه . فلا تحرم من تبغض وتجزل العطاء لمن تحب . فإن خانت زوجها في عرضه أو ماله . أو آذته بعصيانها . أو فضلت بعض أولادها على بعض كانت ظالمة تستحق عند الله سوء العقاب وأما الخادم أو العامل فهو مسئول عن العمل الذي يسند إليه والمال الذي يؤتمن عليه . فإذا أعمل العامل عملاً أو أداء ناقصاً فقد ظلم سيده واستحق عقاب الله تعالى . وكذلك الخادم إذا خان سيده في مال كان كلفه بشراء شيء فزاد في ثمنه وأخذ له نفسه أو أهمل مساومة التاجر فغبنه في السلعة أو رأى أحداً يعتدى على مال سيده فلم يردده أو كلفه بالاتفاق على عمل فأسرف فيه بدون حق أو غير ذلك فإنه يكون آثماً ظالماً يستحق العقوبة التي أعدها الله للظالمين في الدنيا والآخرة

ومن هؤلاء الصناعات الذين يتعاقدون على عمل شيء ثم لا يجيدون صنعه ويفشون الناس فإن لهم عقاب الظالمين وعليهم إثم العاشين . كالبنائين والتجارين والحديدان ونحوهم . فإن هؤلاء جميعاً مكلفون بالعدل في صنائعهم بأن يجيدوها ولا يتركوا باباً من أبواب الخلل إلا أصلحوه . ومتى فعلوا ذلك لوجه الله تعالى وابتغاء ما عنده . فإن الله يبارك لهم في أجورهم في الدنيا ويثيبهم على ذلك في الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » رواه ابن حبان في صحيحه . فهؤلاء مسئولون جميعاً عن العدل في أعمالهم فمن حفظ ما وكل إليه من الأعمال فله جزاء الحسنى . ومن ضيعه فله سوء العذاب .

الرحمة والاحسان والرفق

هذه الصفات من أجل الصفات الانسانية المدحوة وهي كالعدل . والكرم من الصفات التي يشارك الانسان خالقه في الاتصاف بها وإن كانت صفات الانسان حادثة يمكن تحديدها . وأما صفات الاله فهي تابعة لذاته في التعقل . فكما أن ذاته تعالى قديمة لا أول لها ولا آخر لوجودها . فكذلك صفاته وإنما تعرف بآثارها التي تعجز صفات الحوادث عن التعلق بمثل ما تعلق به فالرحمة رقة في القلب تستلزم معاملة الناس بالاحسان وهو التفضل بإسداء الخيل . ولكنها في الاله سبحانه صفة

تسع التائبين من المذنبين والكافرين فيمحو الله عنهم برحمته ما اقترفوه من سيئات وارتكبوه من جرائم . وتسع الانسان والحيوان والدواب فيسخر لهم برحمته من وسائل الرزق وأسباب الحياة من ماء وهواء ونبات وشمس وقر وحر وبرد ما لولاه لهلكوا . وتسع العصاة الذين يفسدون في الارض إلى أجل ما حتى يكون لهم الوقت الكافي لمراجعة أنفسهم والكف عن عصيانهم . وتسع كل شيء في هذا الوجود كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء)

أما حقيقة هذه الرحمة فليس علينا أن نعرفها إذ لم يكلفنا الله بها وهيئات أن نعرفها أو نتقف على حقيقتها بل الذي علينا أن نؤمن بأن الله رحمن رحيم وأن نعرف أن رحمته وسعت كل شيء كما بينا ونؤمن بأنه تعالى ليس كمثل شيء وأنه منزّه عن مماناة الحوادث ذاتا وصفة . هذا معنى الرحمة . ومثلها الرأفة إلا أن الرأفة زيادة الرحمة . وأما الاحسان فانه ينقسم إلى قسمين

الأول : إحسان الشيء بمعنى إتقانه وهذا يتعدى بنفسه فيقال أحسنه إذا أتقنه وقد فسر بأنه الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق وفسره صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح بأن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وهذا هو معنى الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق لأن من يراقب الله في أعماله وقلبه يمتليء بجلاله وعزته حتى كأنه ماثل أمامه فانه لا بد أن يأتي بها على الوجه اللائق فلا يخرج عن الحدود التي سنّها الله تعالى . وكذا من كان يعمل وهو مؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره فانه لا يعمل إلا ما أمر به على الوجه الأكمل . وهذه المرتبة أقل من الأولى لأنه في الأولى يعمل كأن الله حاضر أمامه بذاته فيستحي منه كل الحياء . وأما الثانية فانه يرى الله غائبا عنه ولكنه حاضر بعلمه فيحذره ويخشاه

الثاني : الاحسان بمعنى التفضل وهو يتعدى إلى الناس إذا تفضل عليهم وأسدى اليهم الجليل فضلا منه وكرما . فالاحسان هو أن يفعل الانسان الواجب عليه مع الناس ويزيد عليه فهذه الزيادة في عمل البر والخير مع الأفراد والجماعة تسمى إحسانا . وقد فسر بعضهم الاحسان بترك الاساءة فن فعل الواجب مع الناس وكف عن الاضرار بهم كان محسنا وإن لم يسد اليهم من المعروف أكثر من ذلك

وأما الرفق فهو اللطف وأخذ الأمور بأحسن الوجوه وأيسرها . وضده الخرق - بالضم - مأخوذ من خرق كتعب إذا عمل عملا لم يرفق فيه . ويضاد الرفق أيضا العنف وهو الشدة والمشقة وهل يجوز أن يسمى الله رفيقا أولا . الصحيح أنه يجوز لأنه ورد في الأحاديث الصحيحة تسميته بذلك وهو كاف في صحة التسمية . وقد سأل عمرو بن العاص ابنه عبد الله فقال له ما الرفق قال أن تكون ذا إناة وتلاين الولاة . قال فما الخرق قال معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . أخرجه ابن أبي الدنيا . وقال سفيان بن عيينة لأصحابه أتدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور في مواضعها . الشدة في موضعها واللين في موضعه . أخرجه ابن أبي الدنيا وهو وما قبله بوضح لك معنى الرفق فان الثاني في الأمور وعدم العجلة فيها يفضيان إلى إدراكها على وجه صحيح ومعالجتها بما يناسبها وأخذها بأحسن الوجوه وأيسرها وتصريفها على حسب ما تقتضيه من الشدة واللين فيضع كل شيء موضعه فلا يستهين بمن هو أكبر منه قوة ولا يناوئ من يستطيع

الاضرار به ولا يرضى بالدينه من الامر . فهذا هو الفرق ومنه تعلم أنه لا يوجد إلا مع الحلم لأن التهور وطفان الغضب لا يتأتى معها تصريف الأمور على هذا الوجه كما سيأتى فى الحلم . ولهذا قيل إن الفرق بين الحلم - تصغير الابن - ثمرته ونتيجته . أخرجه ابن أبى الدنيا . أما الخرق فانه قد يوجد مع عدم الغضب لانه قد يكون مسببا عن البلادة والجهل بعواقب الامور . وإذا قد علمت هذه الصفات فاعلم أنها كلها مدوحة فى نظر الدين الاسلامى لما يترتب عليها من إسداء الخير الى الناس والعناية بهم لان الدين الاسلامى يرى أن الخير كل الخير فى معاملة الناس بالحسن وأن الانسان فى هذه الحياة لم يخلق لنفسه فقط بل عليه واجبات وحقوق يؤدها للمجتمع وهذه الحقوق تختلف باختلاف علاقته بغيره شدة وضعفا وقربا وبعداً . وكل ذلك سياتى بيانه فى الجزء الثانى إن شاء الله على أتم وجه . فلنذكر لك هنا بعض ما يترتب على كل صفة منها من الآثار النافعة مع ذكر الاحاديث الصحيحة الدالة على فضلها

آثار الرحمة

فاما الرحمة فانه يترتب عليها من الفوائد النافعة للأفراد والمجتمع ما يأتى
أولاً : الكف عن الاعتداء على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . لان رحمة القلوب لا يؤذون
غيرهم واذا وقع من أحدهم ما يؤذى قهراً عنه فانه يتالم له كل الألم ولا يستريح الا اذا تحلل بمن
لحقه اذاه . فاذا لم يكن فى الرحمة الا هذا لكفى بها فضيلة يتق بها أشد الاخطار التى يتعرض لها
يظلم الناس فى الدنيا والآخرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يملئ للظالم حتى اذا
أخذهم لم يفلقه ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) »
رواه البخارى ومسلم والترمذى . فالظالم لا بد أن ياخذ الله بظلمه وينتقم منه وان صبر عليه .
ومعنى قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك) أى مثل ذلك الأخذ والاهلاك المتقدم ذكره فى الآيات
السابقة لقوم عاد وثمود وآل لوط وغيرهم . (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) فان الله تعالى
يصبر عليهم ويمدهم فى طغيانهم ثم بعد ذلك ينتقم منهم شر انتقام . فكل فرد أو جماعة يظلمون
الناس لا بد أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء الظالمين فى دار الدنيا مهما طال الأمد ولعذاب
الآخرة أشد وأبقى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما المفاس قالوا المفاس فينا من لادرهم له ولا
متاع فقال ان المفاس من امتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة . ويأتى وقد شتم هذا وقذف
هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان
فئت حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم
والترمذى . فمن لم يتحلى من حقوق الناس ويرد لهم مظالمهم فى الدنيا كانت حاله فى الآخرة هكذا .
ان كانت له محسنات ياخذون منها فان وفيت فذاك والا طرح فى النار . وقد ورد فى الحديث

— وسفك دم هذا — ومعنى سفك الدم اراقته فلا يلزم منه ازهاق الروح اذ قد يريق دمه بشج رأسه أو اتلاف عضو منه أما قتل النفس عمداً فإنه لا يبقى معه حسنات فإن الله تعالى قال (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) ولهذا قال بعض أئمة المسلمين إن قاتل النفس بغير حق يخلد في النار كما يخلد الكافر وسواء كان هذا القول صحيحاً أو كان الصحيح أنه لا يخلد خلود الكافرين وأن معنى الخلود طول المكث فإن قول الله هذا يتجلى فيه غضبه على القاتل ويظهر منه شدة وعيده وتهديده إياه وما كان الله ليقول ذلك لعباً بل لأبد من أن يحزى ذلك المجرم الأنيم أسوأ الجزاء ويعاقبه أشد العقاب وكفى به أثماً إن يذكر عقابه كعقاب الكافرين ويجعل جزاءه الخلود في نار السعير وقانا الله السوء بمنه وكرمه

من هذا تعلم أن عاقبة التعدي على الناس وظلمهم شر كبير وبلاء عظيم في الدنيا والآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كانت عنده مظلة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخاري والترمذي

فاحسن ما يفيد المرء في ذلك أن يجتهد في ترضية الناس ويعمل على رد حقوقهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً فإن لم يستطع فعليه أن ينوى سدادها عند القدرة وبطلب منه العفو عما يستحيل عليه الوصول إليه أما التعدي على الأعراض فإنه لا يلزم ذكره مفصلاً لأنه يؤلم صاحبه وربما زاده حقداً وغضباً فلا يصفح أبداً بل الحق أنه يكفي فيه ترضيته من طريق أخرى حتى إذا رضى بطلب منه أن يعفو عنه فيما فرط منه في حقه مطلقاً وسيأتى تمة الكلام في مبحث التوبة في الجزء الثاني

ثانياً . تأدية ما فرضه الله على الإنسان من زكاة مال أو انقاذ نفس معصومة من الهلاك لأن الرحمة لا يستطيعون أن يروا بأعينهم ويسمعوا بأذانهم أن اخوانهم في الإنسانية يتضورون جوعاً ويمشون عراة وهو متمتع بالمال الزائد عن حاجته وحاجة من يعول

ثالثاً . إغاثة الملهوف وإعانة المكروب وقضاء حوائج الناس على قدر ما يستطيع لأن رحمته تدفعه إلى ذلك وبذلك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ويكون من العاملين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قال أرأيت إن لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قال قيل له أرأيت إن لم يستطع قال يأمر بالمعروف أو الخير قال أرأيت إن لم يفعل قال يمسك عن الشر فإنها صدقة » رواه البخاري ومسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه » رواه الطبراني

والحديث الأول يفيد أن الإنسان مكلف بمعونة غيره أما بالمال أو بالعمل أو بالقول فإن كان له مال فإنه يجب عليه أن يخرج منه ما فرضه الله عليه فإن زاد على ذلك فإنه صدقة واحسان يضاعف الله عليه الأجر فإن لم يكن له مال فإنه لا يصح أن يكون عالة على الغير بل عليه أن يكسب المال بعرق جبينه وعمل يده ليتفجع هو وينفع غيره بقدر ما يتاح له . فإن لم يستطع فعليه أن يعين المكروب ويساعده

في عمله مساعدة بدنية فان لم يستطع فليعمل بلسانه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فان لم يفعل فليكيف الناس شره وهذه اقل المراتب وأدناها

اما الحديث الثاني فانه يدل على مقدار فضل قضاء حاجات الناس والسعى في مصالحهم فان من يضي بحاجة أخيه ~~يصكون~~ الله له عوناً في حاجته ومن كان الله له عوناً فانه لن يشقى ابداً ويحفظ الله عليه نعمة ظاهرة وباطنة . اما اذا ضن على الناس بما أنعم الله عليه من جاه ونعم وبخل عليهم بمعونته فان الله يتخلى عنه وبذلك تعرض نعمته للزوال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبراني باسناد جيد . وقال عليه الصلاة والسلام « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » رواه مسلم وغيره

فانظر الى ما تضمنته احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحث على معونة الغير فانها صريحة في ان الانسان لم يخلق لنفسه فقط وأن السعادة في الدنيا ليست عبارة عن الحصول على اكبر نصيب من شهوات البطن والفرج وأوفر حظ من المال والبنين والجاه والسلطان من غير مبالاة بما يصيب من حوله من اذى أو يلحقهم من بؤس وشقاء . كلا بل السعادة الحقيقية في دار الدنيا هي ان يتعاون الانسان مع اخوانه في قطع مراحل الحياة ويمدهم بما اناه الله من مال أو علم أو جاه أو سلطان وهو مع ذلك لا ينسى نصيبه من التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ولا يهمل واجبا من واجباته تعالى . هذه هي السعادة التي ينبغي ان يتنافس فيها المتنافسون ويتبارى في تحصيلها المجتهدون ويتسابق في ميدانها المتسابقون ومن ظفر بهذا في دار الدنيا فقد ظفر بالسعادة الكاملة من نعيم خالد مستمر وملك دائم مقيم في دار الآخرة كما تقدم في معنى السعادة

رابعا . تبعته الرحمة الى مواساة جاره فلا يطيب خاطره أن يرى نفسه يمرح في نعم الله عليه فيأكل انواع الطعام ويشرب لذيق الشراب ويلبس فاخر الثياب الى غير ذلك من انواع اللذات ثم يرى الى جانبه جاره يذوق مرارة البؤس والشقاء فيبيت يطوى على الجوع وحوله صبية عظيم الشقاء بنابه فلم يذوقوا النعيم الدنيا طعما ولم يعرفوا له وصفا لاشك أن الرحاء لا يبصرون على هذا ولا يستطيعون الاغضاء عنه فيؤذون ما فرض الله عليهم نحو جيرانهم البؤساء ويمدون اليهم يد المعونة وذلك من فضائل الأعمال فقد قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع » رواه الطبراني ورواته ثقات ورواه غيره وقال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » رواه مسلم . وقال عليه الصلاة والسلام « خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ورواه غيره الى غير ذلك من الاحاديث الدالة على ضرورة العناية بالجارك كما سيأتى في الواجبات الدينية

خامسا . تبعه الرحمة الى مواساة اليتيم وكفاته ومعونة الارامل والمساكين ومساعدة البؤساء والمضطرين . وذلك من خير أعمال البر وأفضل ما يدخره الانسان لينفعه في دنياه وآخرته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى . ومعناه أن كافل اليتيم له منزلة في الجنة رفيعة لأنه يكون جار النبي صلى الله عليه وسلم وقربا منه وفي هذا الحديث اكبر حث على ايواء اليتيم وتربيته حتى لا يتعرض في هذه الحياة لحن الايام وينشأ عضوا فاسدا في الهيئة الاجتماعية فن يوفق الى كفالة يتيم كان له ذلك الاجر العظيم ما لم يرتكب من الجرائم ما يحول بينه وبين هذه المنزلة فقد ورد في حديث آخر صحيح أنه تكون له هذه المنزلة ما لم يعمل ذنبا لا يغفر

وبالجملة فصفة الرحمة تدفع الى كل الفضائل الانسانية وتقضى على صاحبها بأن يؤدي للناس ما يجب عليهم نحوه وزيادة . ولكن ينبغى أن لا تكون الرحمة سببا في الخروج عن حدود الدين مثلا الحاكم فانه يجب عليه أن يقتصر من الظالم وأن يعاقب المجرم فاذا دفعته رقة القلب الى الاغضاء عن السارق مثلا أو ذنب به الى ترك الزاني فانه يكون مذموما كل الذم بل يكون جاهلا بمعنى الرحمة والشفقة لأنه إذا رحم فردا بترك عقوبته فقد قسا على الجماعة وظلمهم ظلما مبيها لأن الجرائم تفسوا بينهم بكثرة المجرمين الذين لا يخافون عقوبة ولا يخشون قصاصا وبذلك تسود الفوضى ويختل الظلم وتعرض الامة بتمامها للفناء ولهذا قال الله تعالى (ولكم في انقصاص حياة يا أولى الالباب) وقال تعالى (ولا تأخذكم بها رافة في دين الله)

وكذلك الشاهد الذى تذهب به رسمته الى الشهادة بنير الحق رحمة بمن اذا شهد عليه بالحق يفلس في تجارته ولا يجد قوت أولاده أو تضيع أرضه التى يعيش منها فان هذا يكون مذموما لان الله تعالى أمر بآداء الشهادة على وجهها بقطع النظر عن فقير وغنى لانه هو وحده يتكفل بامر الفقير وهو أولى به لانه إذا فتح باب الزور هدد النظام وضاعت الحقوق وكثرت الجرائم واضطرب أمن الناس وذلك شر عام عظيم لا يعادله افلاس فرد أو أفراد . فالرحمة الممدوحة هى التى تكفه عن إيذاء الناس وتدفعه الى أن يؤدي ما عليه من الحقوق والواجبات سواء كانت لله أو لعباد الله وقد ذكرنا لك أمثلة ذلك . ولهذا حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحمة ونهى على قساة القلوب فقد قال رسول الله ﷺ « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم وغيرهما وقال صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم من فى الارض لا يرحمه من فى السماء » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وقال عليه الصلاة والسلام « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » من حديث رواه أحمد باسناد جيد . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم صلى الله عليه وسلم « يقول لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود وغيره . وعن عائشة رضى الله عنها قالت جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنكم تقبلون الصبيان وما قبلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم ومعناه أن النبي ﷺ يوجه على هذا ويعرض بأن هذه قسوة مذمومة فهو يقول له وماذا أصنع لمثلك الذى نزع الله الرحمة من قلبه . ولقد وصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالرحمة والشفقة على الضعاف من خاق الله ولو كانوا بهائم فقد روى عن معاوية بن قره عن أبيه رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها فقال «إن رحمتها رحمتك الله» رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة وهو يحذر شفرته فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أتريد أن تمتتها موتات هلا أهددت شفرتك قبل أن تفرجها» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى. ورواه غيره

وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى كما وردت أحاديث في الحث على الرحمة بالخدم وغيرهم فمن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى رضى الله عنه قال «كنت أضرب غلاما بالسطح فسمعت صوتا من خلفي اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا» وفي رواية «قلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى فقال أمالو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»

فانظر الى رحمة رسول الله ﷺ وعطفه على الضعيف وانظر الى طاعة المسلمين له وتأثرهم بأمره ونهيه فان أبا مسعود حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم متأثرا من ضرب الرجل ويحذره بطش ربه وقدرته لم يجد وسيلة يكفر بها عن ذلك سوى عتق ذلك المملوك . وامثال هذا كثير سيرد عليك في الواجبات ان شاء الله

الاحسان

وأما آثار الاحسان فهي الخير الكثير الذى ينفع المحسنين وينفع عباد الله تعالى سواء كان الاحسان بمعنى التفضل والزيادة على الواجب أو كان بمعنى الاتقان أما الاول فظاهر لأن الذى يفعل ما يجب عليه لله وللناس ثم يزيد على ذلك فانه يكون ذا فضل عظيم على نفسه وعلى الناس واما الثانى فهو ينقسم الى قسمين القسم الاول إتقان الاعمال المتعلقة بامور الدنيا من صناعة وتجارة وزراعة ونحو ذلك فالصانع اذا أتقن صناعته وأجاد عمله فانه ينفع نفسه وينفع الناس لأن إتقان العمل الصناعى ينتج أجل الفوائد للجمتمع إذ يوفر على الناس كثيرا من أموالم التى تذهب سدى فى سبيل خلل الاعمال وكذلك يوفر عليهم كثيرا من الوقت الذى يقطعه الجاهل فى معالجة عمله . ويسد عليهم حاجتهم التى يتبعونها من العمل وهو باتقانه يخدم نفسه لأن ثقة الناس به تقوى وإقبالهم عليه يزيد قروج صناعته ويصبح بين الناس ذا سمعة حسنة وهى رأس مال الصانع التى عليها مدار حياته واستمرار عمله . اما الصانع الذى لا يجيد صنعته ويهمل فيها فانه بذلك يفتش الناس ويظلمهم فى أموالمهم ويضيع عليهم وقتهم وربما أضاع عليهم فرصا كثيرة كانوا يتفعمون بها من وراء جودة الصناعة وعدم خللها

وهو بذلك يهدم نفسه ويرفع ثقة الناس به فكسدت صنعته ويعيش أثاساً فقيراً . بخلاف التاجر الذى يتقن العمل فى تجارته ويراقب الله تعالى فلا يكذب ولا يغش ولا يبيع للناس الا أجود الأنواع وأحسنها ولا يغبنهم فى البيع فيرجح منهم زيادة عن غيره ولا يبيعهم ما يظهر فيه عيب فى المستقبل . ولا يضايقهم فى رغباتهم فانه بذلك يخدم نفسه ويخدم أمته أما التاجر الفاش المهمل الذى يغبن الناس فى بيعه وشرائه فبشره بانصراف الناس عنه وافلاس فى العاجل القريب .

وكذلك الزارع الذى يتقن عمله فانه يخدم أمته باخراج ما ينفعهم ويخدم نفسه بالارتفاع بثمرات زرعه . وهو كذا كل من يناط به عمل من أمور الدنيا فانه مكلف باتقانه فى نظر الدين فان أهمل فيه وكان ذلك الاهمال يقضى الى الاضرار بالناس كان حراماً أما إذا لم يضر أحداً فانه لا يساقب عليه عقاب المحرم ولكنه نقیصة لا يرضاها الدين لأن كل فرد لا يصح له أن يرضى بنقص فى عمله وهو يستطيع أن يسده ولا يصح له أن يهمل أمراً ينفع غيره الا إذا عجز عنه . يرشد الى ذلك الحديث المتقدم فى مبحث الرحمة من أنه على كل مؤمن صدقة فانه مكلف باسداء الجليل للناس فاذا عجز كف عن اساءتهم فالكف عن الاساءة أقل مراتب الاسانية

القسم الثانى . أداء ما فرضه الله عليه من حقوقه أو حقوق عباده على الوجه الأكمل فمن أتقن صلاته وصيامه وحججه وأخرج زكاة ماله طبقاً لقواعد الدين وأداها خالصة لوجه الله تعالى بدون رياء ولا سمعة وليس له غرض فاسد من ورائها وإنما يفعلها امتثالاً لأمر ربه وأدى ما فرضه الله عليه من حقوق عباده كبر الوالدين وصلة الارحام والانفاق على الأهل والاقارب ونحو ذلك مما سياتى فانه بلا شك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ولهذا فسر رسول الله ﷺ الاحسان بان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ومن يفعل ذلك فقد كف عن ظلم الناس وظلم نفسه وأسدى الجليل الى نفسه والى الناس وكان من الفائزين

الرفق

وأما آثار الرفق فهى تصرف الامور على الوجه الآتم وعدم التعرض للأخطار والصدمات التى قد تودى به وهذا خير عظيم ينفع المرء فى حياته . روى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية كتاباً يستعجله أمراً ويحضه على اغتنام الفرصة فكتب له معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الاناة وإن المنتبذ مصيب أو كاد يكون مصيباً وإن العجل مخطئ أو كاد يكون مخطئاً . وإن من لا ينفعه الرفق يضره الخوف . ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالى اخرج ابن ابى الدنيا . فقله أن التفهم فى الخير أى فهمه شيئاً بعد شيء فلا يستعجل فيه فيفهمه بدون تأمل . وقوله زيادة رشد أى زيادة علم فلا بضل الصواب لأن الرشيد ضد الغى والضلال فالرشيد هو الذى لا يعجل فى أمره والاناة بالكسر بمعنى التأنى فيما لا ريب فيه أن الرفق فى الامور خير وبركة على الفرد والجماعة فان الاخرق يضر بنفسه ويضر بغيره بمن لهم به

علاقة لهذا قال رسول الله ﷺ «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» رواه البخاري ومسلم وقال ﷺ «الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم وقال ﷺ «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير» رواه الترمذي

واذ قد عرفت أن الرفق يستلزمه الحلم فإن الآثار المترتبة على الحلم من خير المجتمع والافراد تترتب على الرفق وسيأتى بيانها مفصلة في مبحث الحلم

الحلم وكظم الغيظ

الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب . أو احتمال الأعلى الذى من الأدنى وهو يرجع الى الاول لان من احتمل الأدنى من دونه مع القدرة عليه فقد ضبط نفسه عند الغضب ولا يسمى الانسان حليماً الا إذا كان ذلك طبعاً له لا تكلف فيه . فاما ضبط النفس عند الغضب مع التكلف فهو تحلم لا حلم وهو يسمى كظم الغيظ . فاذا تكلف الانسان الحلم بأن كظم غيظه مرة بعد أخرى أصبح الحلم عادة له

وأصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها فيقال كظم القربة اذا ملاءها وشد رأسها وكظم الباب سده . شبه به من أمسك نفسه عند امتلائها بالغضب فلا ينتقم من أهاجه ومنه فلان كظم بمعنى ممتلئ حزناً . والغيظ مرادف للغضب الا أن الغيظ لا ينسب الى الله تعالى بخلاف الغضب . وقيل ان بينهما فرقاً وهو أن الغضب يتبعه ارادة الانتقام حتماً أما الغيظ فلا . وعلى كل حال فعنى الكاظمين الغيظ المحتملين الغيظ الذين كففوا انفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه

وقد علمت مما تقدم أن ذلك يكون ممدوحاً إذا لم يترتب عليه اخلال بالدين والا كان جبناً فمن حلم على من يعتدى على دينه أو عرضه أو ماله ولم يكفه عن ذلك نال منتهى الذم نعم قد علمت انه ينبغي لمن يدافع عن الفضيلة أن يضبط نفسه عند الدفاع فلا يسرف في الانتقام ولا يتجاوز الحد المشروع لرد المعتدين والا كان متهوراً ظالمًا فالشجاعة في نظر الدين تستلزم الحلم لانك قد عرفت ان ليس الشجاعة مجرد القوة التي يستطيع بها المرء مواجهة الاخطار بل لا بد معها من ضبط النفس عند الغضب حتى يتمكن من اتباع سنن الدين في الدفاع على الوجه الذى يناء لك فيما تقدم

ما يترتب على الحلم من الآثار والمنافع

يترتب على الحلم آثار جليلة . ومنافع عظيمة يعرف الفرد أو الجماعة قدرها . إذا طغى الغضب فأثار النفوس وأسعر نار الفتنة . فاضطربت الأمور واستحكمت العداوة

والبنضاء واستولى على النفوس حب النزاع والصدام وحب البها الفتك والتدمير وسهل عليها القضاء على الأنفس والأموال والأعراض وعذب لديها تخريب الديار . والاستهانة بالنظام ونسيت ما يحجره العيش والتهور من بلاء دائم وشقاء مستمر . وينتج من نتائج قد تغير مجرى الحياة فتبدل العز ذلاً والسعادة نحساً والريح خسراناً والأمن خوفاً والطمأنينة قلقاً وراحة النفس عذاباً . عند ذلك يعرف الناس فضل الحلم ويكبرون قدر الحليم . فإن الحليم هو الذى يدفع بحمله كل هذه الشرور لأنه يستطيع أن ينظر إلى كل أمر من الأمور نظراً صادقا ويقدره تقديراً صحيحاً ويزنه بميزان عادل فلا يستخفه الغضب والطيش فيدفعه إلى المخاطرة ويسوقه إلى ما لا قبل له به . وربما كان زعيم قوم وقائد جماعة فيعرضهم بطيشه إلى الهلكة والدمار . وينقذهم بحمله من مزالق الفناء ومواطن البوار فالحلم خير وقاية تقي مصارع السوء وتحفظ من الوقوع في مواطن الهلاك

ولهذا أمثلة كثيرة بين الجماعة والأفراد . فلنذكر هنا المهم منها ليتضح لك الأمر وتنجلى لك الحقيقة من جميع الجهات .

المثال الأول. الحاكم إذا كان حليماً لا يستغزه الغضب إلى إبرام الأمور قبل الثبوت منها فإنه يكون نعمة وبركة على نفسه وعلى أمته لأن الثبوت في الأمور قبل إبرامها يستلزم العدل وإعطاء كل ذي حق حقه وجزاء كل فرد بما هو أهله . وبذلك تسعد أمته وتدوم دولته وترتفع مكانته عند الله وعند عباده . فيرضى عنه ربه . فيستجيب له إذا دعا وبهت له وسائل النصر والظفر على الأعداء . ويدبم عليه نعمة في الدنيا والآخرة كما قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر . والامام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذى وغيرهما . وقال عليه الصلاة والسلام « عبادة يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » من حديث رواه الطبرانى بإسناد حسن . إلى غير ذلك من الأحاديث الكريمة الدالة على فضل الحاكم العادل وما له من المنزلة عند الله تعالى وعلى العكس من ذلك الحاكم الجائر الذى يستغزه الغضب فيحمله على الانتقام من الضعفاء وظلم الأبرياء من غير ثبوت ولا دليل . ويكفى مثل هذا تخويفاً وتحذيراً قول رسول الله ﷺ « إن دعوة المظلوم لا ترد وإن الله تعالى يرفعها فوق السحاب ولا يد أن ينصره ولو بعد حين » فالمظلوم يغضب الله من أجله ويستجيب له دعوته ويتقم له بمن ظلمه في الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وقد تقدم تفصيل ذلك في مبحث العدل

المثال الثانى . زعماء القبائل والعشائر ورؤساء الأسر إذا كانوا حلماء فانهم يرفعون عن أتباعهم كثيراً من الأذى ويدفعون عنهم شر التنازع والخصومات مع بعضهم بعضاً أو مع غيرهم . فإن الحليم يمكنه أن يعالج الأمور بالهدوء ويفكر فى الوسائل التى تزيل الضغائن والأحقاد . فيقبض على ناصية الأمور ويصرفها بالحكمة وبذلك يستميل إليه الخصوم وينتبه عن الشر ويأخذ منهم بحمله ولينه ما لم يستطع أخذه بجأه وقوته فتتجسم مادة الشر ويحل الوئام محل الخصام . ومثل هؤلاء الزعماء القضاة إذا اتصفوا بالحلم . فإن القاضى الحليم يستطيع أن يهتدى إلى الصواب ويعرف الحق الذى ينشده . لأن سعة صدره لاستماع كل ما يذكره الخصوم وحمله عليهم حتى يدلوا إليه بكل حججهم ويدينوا له كل

ما يستطيعون من طرق الإثبات . لهُ من خير الوسائل التي تفيد في استنباط الحق ومعرفة الزائف من الصحيح . أما إذا كان سريع الغضب لا يصبر على سماع حجة ولا يطبق مناقشة دليل فان خطأه يكون أكثر من صوابه وضرره يكون أكثر من نفعه

المثال الثالث . المربي إذا كان حليماً فانه ينتج أحسن النتائج ويؤدي لآمنته أجلّ الخدم وأفضلها لأنه يستطيع بحلمه أن يدين مواضع الضعف من نفس القائم على تربيته فيعالجها بما يناسب حاله حتى يشب صالحاً نافعاً خصوصاً إذا كان قائماً بتأقينه العلم فان ملقن العلم إذا لم يكن حليماً فانه يضيع على من يعلمه أحسن الفرص في حياته لأنه يحرمه من مناقشة الحقائق العلمية التي يتمكن بها من معرفة الخطأ من الصواب والحق من الباطل ويتدرب بها على المناظرة المفيدة للفكر فضلاً عما تتركه حماة المربي من الأثر السيء في نفس الطالب . فان عدواها تسرى اليه من استاذة ويكون شراً على نفسه وعلى الناس .

المثال الرابع . الزوج مع زوجته . إذا كان كل منهما حليماً فانهما يعيشان عيشة راضية مرضية اذ يغضى كل منهما عن هفوات صاحبه فلا يثيران نزاعاً لا يسر الأمور وأحقّر الأسباب خصوصاً إذا كان لهما أبناء تنطبع فيهم أخلاقهما وتنقل اليهم صفاتهما فان فضل الحلم في هذه الحالة عظيم وضرر الخفاقة شديد لما يصيب الأبناء من نفع الاول وضرر الثاني . فالحلم في الحياة الزوجية سعادة عاجلة وآجلة وخير عظيم للأسرة بتمامها .

المثال الخامس . التاجر إذا كان حليماً . فان تجارته تكون رائجة . وإقبال الناس عليه يكون كثيراً . لان حلمه يرغبهم في معاملته . أما إذا كان أحق يثور غضبه لاهون الأسباب وأيسر الأمور فيؤذي بلسانه من لم يسوّم سلعته بالثمن الذي يحب أو يمنع عنه السلعة . فلا يمكنه من إعادة النظر اليها أو يخاف الايمان بأنه لا يبيعها منه . الى غير ذلك مما يفعله كثير من الباعة حماقة وجهلاً فانه من أكبر الأسباب في كساد تجارتهم لانصراف الناس عنهم ونفرتهم من معاملتهم وقد يفضلون معاملة الحليم حتى ولو كانت سلعته أقل جودة من سلعة ذلك الآخر . فكلما أن الصدق من وسائل نجاح التاجر فكذلك الحلم . ومثل التاجر الصانع . فان الصانع الآخر الحق تنفض القلوب من حوله ويأبى الناس معاملته خوفاً من شره فلا يعامله أحد ويظل فقيراً بائساً . أما الحليم فانه يكون محباً للنفس يستريح معه الناس فتروج صنعة وبعث بها سعيداً . فكلما أن الكذب سبب في بوار الصانع وعطلته فكذلك الحماقة والغضب

فالحلم نافع للأفراد والمجموع والرئيس والمردوس والتاجر والصانع والزارع ومفيد للناس أجمعين بشرط أن يستعمل في موضعه كما ذكرنا آنفاً

(وبعد) فلقد ذكر هنا أمثلة من حلم رسول الله ﷺ ليقتدى به المسلمون . ويبتدى بهديه المسترشدون فانه عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم حلماً كما وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلی خلق عظیم) فمن ذلك ما رواه جابر رضي الله عنه أنه ﷺ « كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال رجل يا نبي الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل فقد خبت اذا وخسرت إن كنت لأعدل فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فانه منافق فقال معاذ الله

أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي» رواه مسلم . وكان رسول الله ﷺ في حرب « فاستظل تحت شجرة بعيداً عن أصحابه وقد علق سيفه بئلك الشجرة . فجاء رجل مشرك فأخذ سيف رسول الله المعاق ووقف على رأسه وفي يده السيف ثم قال للنبي ما يمنعك منى فقال ﷺ الله عز وجل يمنعني منك فدهش الرجل في نفسه وسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف من الأرض وقال من يمنعك الآن فقال الرجل كن خير آخذ قال قل أشهد أن لا إله إلا الله فقال لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فغلى سديله فجاء الى قومه فقال جئكم من عند خير الناس» ومعنى هذا الحديث متفق عليه

وروى ابن القيم أن رسول الله ﷺ « كان يقسم تمرأ في عرجونه في يوم شديد الحر فجهم عليه أعرابي فضايقه فضربه رسول الله بعرجونه فقال له الرجل أتضربني يا رسول الله فقال له خذ فاقص فقال له بل عفوت يا رسول الله»

وروى أيضاً أن معاذاً شبح رأس رجل فطالب قومه بالقصاص فراضهم رسول الله ﷺ بمال حتى يعفوا فرضوا به فقال لهم عليه الصلاة والسلام انى سأعان ذلك في ملا من الناس فقالوا نعم فذكره صلى الله عليه وسلم في اجتماع ثم قال لهم هل رضيتم فقالوا لا . فلم يغضب عليهم واحتل بهم مرة أخرى وزاد لهم في المال حتى رضوا فقال لهم انى سأذكر ذلك في جمع فقالوا نعم ففعل ثم قال لهم هل رضيتم قالوا رضينا « فاذا تأملت فيما ذكرنا من تلك الامثلة ترى أن رسول الله ﷺ كان يصفح عن كل ما ليس له أساس بالدين ويعفو حيث يكون للعفو أثر صالح وينسى نفسه الكريمة عند الحق والعدل . فانظر الى عفوه عن الرجل الذى أراد قتله فانه لفت بعفوه نظر الرجل الى مكارم أخلاقه ﷺ . وذهب الى قومه فقال لهم جئكم من عند خير الناس وفي ذلك من توجيههم الى النظر في تعاليمه والبحث فيما جاءهم به من عند ربه ما قد ينتج اسلامهم وهدايتهم وتلك هى النتيجة التى يسعى اليها رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . وكذلك عفوه عن الرجل الذى قال له اعدل يا رسول الله فانه عليه ﷺ بقوله انه اذا اقتص منه كما قال عمر يقول الناس ان محمداً يقتل أصحابه وذلك خطر شديد على الدعوة الى الله لأن الناس ينفرون عنه ويخشون الاجتماع عليه . وهذا هو الذى يبناء لك من أن الحليم الذى لا يستغزه الغضب يستطيع أن يتدبر في عاقبة الأمور وينظر الى ما عساه أن يقع ولو تقديراً فيحكم حكماً لا يكون وراءه ندم على أى حال . وكذلك حلمه مع الاعرابى الذى قال له أتضربني يا رسول الله فانه ﷺ لم يتباد في غضبه ولم يستنكر من الاعرابى استفهامه الذى فيه مطالبة بحقه ففضى عليه حلمه أن يخضع للحق وأن يقول للأعرابى خذ العرجون واقص منى . ألا ان فى ذلك لابلغ العظمت وأجل المنهل

فهذا رسول الله ﷺ يقتص من نفسه لأنه لطم أعرابياً ضايقه بعرجون مع أنه أرفع قدراً من الملوك وأعلى منزلة من القياصرة . ولقد كان يقول له قومه لو أمرتنا أن نخوض بحراً ما تخلف واحد منا وكاتوا يبايعونه على الموت فهل من مذكر . على أن فى هذا الموقف عظة أخرى ينتجها الحلم وهى المحافظة على الحقوق العامة . والتمسك بالنظم فهو ﷺ يرشد بذلك أمته الى أن الناس سواسية بالنسبة للنظام فلا فرق بين كبير وصغير وعظيم وحقير فليس لواحد مهما علا قدره أن يعتدى على

غيره ويقلت من العقاب الذي سنه الله لذلك . ولقد بلغ من حلمه عليه السلام أنه لم يضرب قط امرأة ولا خادماً كما ورد في حديث متفق عليه . وقيل له وهو في القتال لو لعنتهم يا رسول الله « فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً » رواه مسلم . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة « قالوا يا رسول الله إن دوساً قد كفرت فادع عليها فقبل هلك دوس فقال اللهم اهد دوساً وأت بهم » ولما آذاه المشركون يوم أحد وكسروا رباعيته وشجوا وجهه وشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم « فقال اني لم أبعث لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة اللهم اغفر لقومي أو اهد قومي فانهم لا يعلمون » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم أنا بشر فأيا مسلم سبته أو لعنته أو جلده فاجعلها مني صلاة عليه وقرية تقربه بها إليك يوم القيامة » رواه مسلم ومعنى هذا الحديث متفق عليه . وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص لرسول الله ﷺ أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه الا حق وأشار الى لسانه » رواه أبو داود باسناد صحيح . وفي الحديث الذي قبله نهاية الحذر والاحتراص منه ﷺ فانه يخشى أن تغلب عليه الطبيعة البشرية مرة فتخرجه عن حاله المعبودة من الحلم فيشتم أحداً شتمه أو يضربه ضربة فطلب من الله تعالى أن يجعلها قرينة لمن حصلت له والواقع أنه ﷺ لم يضرب أحداً يده الا أن يجاهد في سبيل الله وما لعن مسلماً بصرح اسمه أبداً . روى الحاكم ما لعن رسول الله ﷺ مسلماً بذكر اسمه وما ضرب يده شيئاً قط الا أن يضرب في سبيل الله ولا سئل شيئاً قط فتمعه الا أن يسأل مأثماً ولا انتقم لنفسه من شيء الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فيكون لله فينتقم .

ومن أجل ذلك أمر عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو أن يكتب عنه ما يقول في حال الغضب والرضى لانه معصوم عن الزلل واثق من أن الغضب لا يخرج عن طوره ولا يصرفه عن قول الحق على أي حال .

وقال على كرم الله وجهه كان ﷺ لا يغضب للدين فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » . رواه الترمذي

فهذه أمثلة من حلمه ﷺ وتري من حديث على كرم الله وجهه انه ﷺ كان يحلم حيث يكون للحلم موضع . اما اذا جحد الحق جاحداً او خرج عن دين الله فاجر او اعتدى عليه معتداً فانه كان عند ذلك يغضب حتى يقوم الحق وتنتصر الفضيلة وتنهزم الرذيلة . وهذا هو معنى الشجاعة التي ذرناه لك فيما مضى

ولاغرو فانه صلى الله عليه وسلم كان الشجعان الناس واحلم الناس فمن تمسك بسنته فقد اهتدى ومن حاد عنها فقد ضل سواء السبيل وكذلك كان حال أصحابه رضي الله عنهم فانهم تخافوا باخلاقه الكريمة ولم يجيدوا عن طريقه القويم قيد شعرة فنصرهم الله على أعدائهم وأعزهم وأعلى قدرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن فنزل على الحر بن قيس وكان عن يديهم عمر وكان القراء اصحاب مجلس عمر فقال عيينة لابن أخيه الحر يا بن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير تستأذن عليه فاذن له عمر فدخل فقال يا بن الخطاب مات عطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر

حتى هم به فقال الحر يا امير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)
 وإن هذا من الجاهلين . قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وقال له صدقت فكأنما كانت تاراً
 فانطقت . وكان عمر وقافاً عند كتاب الله رواه البخارى
 وأنا نقف مع القارىء عند هذا الحد لأننا لو شئنا أن نتبع ما كانت عليه كرام المسلمين من
 الحلم لضاق بنا المقام وحذا لو فهم المسلمون ذلك وعملوا به ليعيشوا مثلهم كراماً في الدنيا ويكونوا
 برة عند الله يوم يبعثون

التواضع

التواضع يقابل الكبر وهو انكسار القاب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق وإنما ينشأ
 ذلك من معرفة الانسان قدر نفسه وقدر ربه لأن من يدرك أنه شخص ضعيف فإن وأن كل صفة
 من الصفات الموجبة للرفعة والكبر في هذه الحياة لا ثبات لها بل هي أعراض زائلة متنقلة ويدرك
 أن ربه هو الخالق العظيم المنفرد بالبقاء والكبر وأنه سبحانه سيجزى الذين اساءوا بما عملوا ويحزى
 الذين أحسنوا بالحسنى فإن قلبه دائماً يكون منكسراً لربه فلا يتمرد عليه باقتراف الجرائم والآثام
 وعند ذلك يعامل الناس بالرفق والرحمة وابن الجانب فلا يتكبر على أحد ولا يزهو على مخلوق ولا
 يسالى بمظاهر العظمة الكاذبة فلا يحقد على من لم يقف اجلالاً له ولا يعتدى على من يتصدر في مجلس
 هو فيه وإن كان دونه منزلة ولا يستكف من مجالسة الفقراء ومخاطبتهم بطيب الكلام ولا يأنف
 من أن يستمع نصيحة ممن هو دونه ولا يحتقر احداً من خلق الله الى غير ذلك مما ينشأ لك
 في مبحث الكبر

وبذلك تعرف الفرق بين التواضع والضعفة فإن الضعة هي الدناءة والخسة وابتذال النفس في سبيل
 شهواتها الفاسدة فيقف المرء في مواقف تزدري به من أجل الحصول على منصب أو مال أو جاه
 أو امرأة أو غير ذلك فلا يبالي أن يذل لمن هو دونه أو يتماق لمن يهينه أو يقف على باب من يستثقله
 ويظهر الاشتمزاز منه وهو لا يبالي بالالحاق عليه والوقوف بين يديه ذليلاً خاضعاً . والتواضع من
 صفات النفس الممدوحة والضعفة من صفات النفس المذمومة ولقد ذكرنا لك في مبحث الكبر
 أن ليس من الكبر معرفة الانسان قدر نفسه والترفع بها عما يذرى والضابط في ذلك أن كل ما يترتب
 عليه مصلحة للأفراد والجماعات فهو حسن ممدوح وما يترتب عليه ضرر وشر فهو سيء مذموم
 كما تقدم غير مرة

والتواضع بالمعنى الذى ذكرنا فوائد كثيرة ومنافع جزيلة تعود على الافراد والجماعات بالخير
 الكثير فإنا المتواضع محبب الى النفوس قريب من الناس وكلنا دنا منهم ارتفعت منزلته عندهم
 وعظم قدره في أنفسهم واستفاد منهم وأفادهم وكلما كان المتواضع عظيماً كان تواضعه اكبر أثراً وأكثر
 فائدة لأن الاشياء تعظم بنسبة من تسند اليه كما ذكرنا غير مرة . ولنورد لك بعض امثلة على ما ذكرنا

المثال الأول . إذا كان المتواضع عالماً فانه بالتواضع يزداد علماً لانه لا يستنكف أن يأخذ الفائدة من دونه . ولا يأتي أن ينقل الحق عن أى مخلوق أما المتكبر فهو كالمغرور فانه كثيراً مانفوته الحقائق العلمية لأنه يأتي أن يأخذ الحق حيث كان . ولذا قيل ضاع العلم بين الحياء والكبر وكذلك إن كان متعلماً فانه بالتواضع يجد عطفاً من معلمه فلا يرضى عليه بمجهود ولا يخل عليه بفائدة لأن التواضع يستلزم الأدب . وما أحسن الأدب من المتعلم مع أستاذه الذى يعصر مخه فى سبيل تنقيفه وتهذيبه فانه بالتواضع له والتأدب معه يبرهن على أنه يعرف قدر العلم ويدرك قيمة المعروف وأنه ممن يحزى الاحسان بالاحسان . أما المتكبر الذى يرمى نفسه على من يعلمه أنفة واستكباراً ويحمله الكبر على سوء الأدب مع أستاذه فهو غبي جاهل لا يعرف للعلم قيمة ولا يريد أن يخرج من جهله وذلك مشاهد بين المتعلمين . فأنك ترى المتكبرين على أساتذتهم لا ينفكون عن الجهالة ولا يخرجون عن السخف فضلاً عما يتصفون به من نكران الجليل وجمد المعروف

المثال الثانى . إذا كان المتواضع ذاملاً فانه بمخالطة الناس وعدم الترفع عليهم يعرف البؤساء والمحتاجين ويرى بعينى رأسه ما يصيبهم من الشقاء ويمسهم من الجوع والعري . وما يؤذيهم من ألم الحر والبرد فتألم نفسه لما يصيبهم فيسهل عليه أداء ما فرضه الله عليه للسائل والمحروم ويهون عليه أن ينقذ المكروب ويغيث الملهوف . وفى ذلك فائدة له وللناس لانه بعمله هذا يرضى عنه ربه وخالفه ورضاء الله خير ذخيرة يذخرها الانسان تنفعه فى الدنيا والآخرة لأن من يرضى عنه مولاه العزيز الحكيم لن يصيبه ضيم ولن يمسّه شقاء فضلاً عما يكسبه من قلوب الناس ومحبتهم إياه واحترامهم له وإخلاصهم فى خدمته . وتضافرهم على الدفاع عنه والانتصار له . وبعد هذا كله فانه يستريح من سقاسف الأمور التى يتألم لها المتكبرون وتغلى من أجلها دماؤهم ويطنى غضبهم فيحماهم على العدوان على عباد الله لأن المتواضع لا يعنى بمظاهر العظمة الكاذبة التى ذكرناها آنفاً

المثال الثالث . إذا كان المتواضع ذا جاه فان التواضع يجعل لجاهه معناه . لأن الجاه إن لم يستعمل فى فائدة الجماعة والأفراد فلا يكون له معنى ومن ترفع عن الناس ولم يتواضع لهم فانه لا يدنو منه أحد ولا يتنفع بجاهه محتاج فيظل جاهه قاصراً عليه ويصبح اسماً بدون مسمى ومن يظن أنه متى حصل على ما يسد شهوته وحده من مال أو جاه أو سلطان فقد ظفر بلذات الدنيا ونعيمها فلا يبالي بعد ذلك بغيره شق أم سعد فهو تعس لأن الانسان لا يستقل فى هذه الحياة بل لابد له من التعاون مع غيره وقد فرض الله عليه أموراً كثيرة يؤديها لأهله وأقربائه وجيرانه وأهل مدينته والبيئة التى هو فيها كما فرض عليه إغاثة الملهوف وإنقاذ الأنفس من الهلكة عند القدرة وعمل ما فيه الخير للناس ومن تأخر عن ذلك فهو آثم مجرم كما سيأتى فى الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله . وما أحسن التواضع من ذى الجاه فانه يعظم فى أعين الناس جد العظمة . ويرتفع قدره كل الارتفاع ويكون كمن قيل فيه

دنوت تواضعاً ورفعت قدراً * فشأنك الانخفاض وارتفاع
كذلك الشمس تلو إذ تبارى * ويدنو الضوء منها والشعاع

أما ذو السلطان فان تواضعه يجب أن يكون معتدلاً بالحيلة فلا يفعل ما قد يطمع فيه المحكومين أو يسهل عليهم مخالفة النظام . وذلك يرجع للبيات التي يعيش فيها فان كانت تدرك معنى الواجب وتعرف معنى النظام فان الحاكم يكون في خارج الحكم كغيره كما كان في صدر الاسلام . فان المسلمين يومئذ كان الواحد منهم إذا اقترف جريمة ينم عن نفسه ويطلب أن يقتص منه ولو كان الجزاء يفضى به إلى الاعداد كما حصل من ماعز الذي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إني ذنيت وطلب أن يعدم . ففى مثل هذه البيئة التي تحافظ على القانون من تلقاء نفسها لا يصح للحاكم أن يحتجب عن أفرادها أو يترفع عن مخالطتهم . أما إذا كانت البيئة لا تعرف للنظام قيمة ويرى الواحد منهم أن قرب الحاكم منه فرصة للخروج على النظام وربما اتخذ ذلك ذريعة يؤهم بها غيره إلى أنه قادر على رفع العقاب عن الجاني والحكم على البرى . فيسلب الناس أموالهم كرشوة على هذا الحساب . فان الحاكم يجب عليه أن يحتاط إلى هذه الحالة كل الاحتياط كما قدمنا في مبحث الكبر ويكون معنى تواضع الحاكم حيثندين جانبه والاصغاء لحجج الخصوم ومخاطبة الناس بالادب وعدم الغرور بمنصبه الذي لا بد أن يزول وإقامة العدل بين الناس فيسوى بين الصغير والكبير في الحقوق ومن يفعل ذلك فله أحسن الجزاء عند الله كما تقدم . من أجل ذلك كله حثت الشريعة الاسلامية على التواضع وأمرت به فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة . وأنفق مالا جمعه في غير معصية . ورحم أهل الذل والمسكنة . وخالط أهل العفة والحكمة » رواه البخارى في التاريخ ورواه غيره

وفي الحديث إشارة إلى أن التواضع الممدوح هو غير الضعة التي ذكرناها وهي أن يقف موقفاً يذرى به

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في التواضع ومكارم الاخلاق . فقد روى الحاكم بسند صحيح « أنه أتى للنبي صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيئته فقال هو من عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل من القديد » والقديد اللحم اليابس لأن قريشا كانت تجفف اللحم وتخزنه لوقت الحاجة . وقال ابن عامر « رأيت صلى الله عليه وسلم يرمى الحجرة على ناقة صها . لا طرد ولا ضرب ولا إليك إليك » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وهو حسن صحيح . ومعناه أنه صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد العالمين وإمامهم الا عظم كان يرمى حجرة العقبة كأحد الناس فلا يخلون له الطريق . ولا يطردون الناس ولا يضربونهم ولا يقولون لهم تنحوا إلى جهة وذلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام أكبر تواضع . وروى أبو داود والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يجلس بين أصحابه مخاضاً بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فينوا له دكاناً من طين فكان يجلس عليه » والدكان كما يطلق على الخانوت يطلق على الدكة التي يجلس عليها — المصطبة —

فذلك مثل من تواضعه صلى الله عليه وسلم . فعلى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام ليسعدوا في الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين .

الحياء والعفة

الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وهو صفة من صفات النفس المدوحة لأن اشمزاز النفس عن القبائح يستلزم تركها والانصراف عنها . فالحياء بهذا المعنى من أفضل صفات النفس وأجلها قدراً . وهو مركب من أمرين . الجبن . والعفة . لأن الانتباض عن الشيء يقتضى الاحجام عن فعله كما علمت وذلك أثر الجبن . وترك القبيح أثر العفة . فالحياء المددوح هو ما تركب منها معا . أما انقباض النفس عن الفضائل فإنه لا يسمى حياء بل هو الجبن . فإذا كان المرء مع أحد العظماء الذين يتركون الصلاة ويأتون الذكر فانتبضت نفسه عن فعل الخير وانبسطت لفعل الشر مجازاة لذلك العظيم كان فعله ذلك جبناً لا حياء . ومثل ذلك ما يفعله بعض الناس من مجاملة بعضهم بسماع الغيبة ونحوها فإنه حين مذموم كل الذم . والحياء يستلزم الحجل وليس هو الحجل لأن الحجل حيرة النفس وارتبا كها من فرط الحياء

وأما العفة فهي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط في الشهوة والغضب على الوجه الذي يناء فيها فهي مساوية للعدل لأن من توسط في شهوته وغضبه كان مؤدياً لما يجب عليه من الحقوق لنفسه وغيره سواء كانت متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده وذلك معنى العدل . وبديهي أن العفة تستلزم الكف عن القبائح أما التلذذ بالمباح فقد ذكرنا لك حكمه في مبحث الاقتصاد ومبحث شهوة الفرج وغيرهما وقلنا لك أن العفة لا تستلزم ترك التمتع بنعم الله وطيبات رزقه لأن الله خلقها للناس ليستمتعوا بها ويذكروا نعمة الله عليهم فإذا وجد ما يقتضى هجر اللذات المباحة كما إذا راض نفسه ليصل الى ادراك حقيقة من الحقائق أو يكون قدوة للبؤساء الذين حرموا من لذات الدنيا أو يكون مثالا لقومه في الاقتصاد أو نحو ذلك فإنه إنما يريد بذلك لذة أرقى وتمتعاً أكبر لأن استمتاع النفس بهذه الامور المعنوية الباقية أكبر وأعلى من استمتاعها باللذات المحسنة المتقضية كما يناء لك في أول هذا الباب . أما هجر اللذات المباحة وترك التمتع بالطيبات من الرزق لا لغرض سوى أنه يريد به الرهينة فإنه لا يجوز في نظر الاسلام لأن الله أمر الناس أن يأكلوا من طيبات رزقه قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً) فقد أمر الله تعالى باكل الحلال الطيب نعم اذا كان الاستمتاع يفضى إلى الترف والاسواف كما يناء في موضعه فإنه يكون مذموماً .

أنواع الحياء

ينقسم الحياء الى قسمين . حياء من الله . وحياء من الناس وهو بقسميه رأس الفضائل وأساس مكارم الاخلاق لانه يترتب عليه ما يترتب على العدل والعفة ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله » رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء من الايمان والايمان في الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء في النار » رواه أحمد وغيره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل الحياء من الدين فقال بل هو الدين كله » من حديث رواه الطبراني وغيره . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » من حديث رواه البخاري ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء والايمان قرناهما جميعاً فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » رواه الحاكم وغيره .

هذا بعض ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياء وهو كما ترى يتضمن وعد من انصف بالحياء بالجنة ووعد من انصف بضده من البذاء والفحشاء بالنار فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الحياء خير كله وأنه قرن الايمان فاذا رفع الحياء رفع الايمان ثم قال ان الايمان — أى أهل الايمان — في الجنة . وأن البذاء من الجفاء وأهل الجفاء في النار . ولا ريب في أن ذلك من أجل الحكم وأفضل الموعظة فما من أحد يستمسك به ولا يحيد عنه الا عاش في دنياه عيشة راضية مرضية وظفر في آخرته بالسعادة الدائمة والملك المقيم .

آثار الحياء

قد علمت أن الحياء ينقسم الى قسمين حياء من الله وحياء من الناس فاما الحياء من الله فانه يترتب عليه كل الفضائل التي يسعد بها الناس في دنياهم وآخرتهم فان الذي يستحي من الله لا يفعل منكراً ولا يترك واجباً مادام يؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره وأنه لا بد أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بأساءته وأنه سبحانه هو الذي خلقه فسواه وأمدّه بنعمه وفضله على كثير ممن خلقه وأنه مدين له سبحانه في وجوده وبقائه وفنائه وبعثه وأنه محتاج اليه في جميع حركاته وسكناته وأنه اذا تأمل في نفسه وأدرك ما انطوت عليه من دقيق الصنيع وبديع التركيب وعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فلا بد من أن يستحي من عصيان ذلك الخالق ولا بد أن يفعل ما أمره الله به وينتهي عما نهاه عنه وذلك هو الخير كله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ظاهر لان الذي يطيع الله فيما أمر لا يظلم أحداً من عباده ولا ينقص أحداً منهم حقه فيؤقر الكبير ويرحم الصغير وينزل كل واحد

منزله ولا يترك ما يجب عليه نحو أحد . ولا يهمل حقاً من حقوق ربه ومن يفعل ذلك فهو ذو فضل عظيم وخير كثير على نفسه وعلى غيره يعيش في هذه الحياة عيشة راضية مرضية ويحيا حياة هنية طيبة في الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم

وأما الحياء من الناس فهو قسمان ايضاً . الاول أن يستحي المرء من الناس وهو جازم بانه لا يأتي هذا المنكر ولا يفعل هذه الرذيلة خوفاً من الله تعالى وحياء منه أيضاً ولولم يطلع عليه أحد من خلقه وهذا هو الحازم الذي عرف كيف يستفيد من صفة الحياء وبأخذ أجرها كاملاً لأن الحياء انما يمدح من جميع جهاته إذا ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين في جميع الاحوال . الثاني أن يترك القبيح حياء من الناس بحيث لو لم يطلع عليه أحد لفعله وهذا وإن كان لم يأخذ أجره كاملاً ولكنه يرجي منه الخير وينجح فيه العلاج لأنه مادام الحياء موجوداً في نفسه وما دام لا يفعل القبائح بين الناس فانه يسهل تذكيره بعظمة ربه وجلاله إن كان مؤمناً وتعليمه ان الله أولى وأحق بأن يستحي منه لأنه هو القادر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو بكل شيء عليم فليس من الحزم أن يستحي الانسان من الناس ولا يستحي من ربه . وليس من العقل أن يضع ثواب ترك القبيح بانصرافه عن ملاحظة خالفه ومراقبة ربه

أما الذي يجاهر بالعصيان ولا يستحي من الله ولا من الناس فهو من شر ما منيت به الفضيلة لأن المعاصي داء سريع الانتقال لا تلبث عدواه أن تسرى الى النفوس الضعيفة فيعم شرها وينفقم خطيئها فضلاً عما في المجاهرة من انتهاك حرمة الفضيلة والقضاء عليها فشره على نفسه وعلى الناس عظيم وخطره على الفضائل كبير فيجب على جماعة المسلمين أن لا يتركوا أولئك الذين يجاهرون بارتكاب الموبقات يعيشون بينهم بل يجب على كل واحد أن يبذل مجهوداً في رددهم عن غيهم بكل ما يستطيع من نصيحة وغيرها . وخير علاج للقضاء على هؤلاء مقاطعتهم وعدم مخالطتهم واحتقارهم في مجالسهم والانصراف عن حديثهم حتى يرجعوا عن غيهم ويكفروا عن المجاهرة بجرأتهم . ومن الأسف أن المجاهرة بالعصيان قد فشت في زماننا بدون حياء من الله ولا من الناس وأصبح الزاحم على الشهوات القاصدة والذات المحرمة شائماً والتسابق في ميدان القبائح شاملاً فلا شاب ينزجر ولا شيخ يرعوى ولا رجل تدركه الغيرة . ولا امرأة يغلب عليها الحياء وذلك آفة فناء الأمم وهزيمتها في كل شأن من شؤونها قائماً الأمم تحيا حياة طيبة بالتمسك بالفضائل ونعيش عيشة سعيدة باجتنب الرذائل فإذا انتهكت المحارم وغلبت الشهوات وضاع الحياء فإذا يرتجى بعد ذلك من عيش وراءه يحفظ الله وعقابه ومقته وعذابه ألا إن ذلك هو الهلاك والخسران كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً ترك منه الحياء » من حديث رواه ابن ماجه

فها أنت ذا ترى النساء خرجن عن كل معنى يطلبه الحياء فيخرجن في كثير من المدن عاريات الصدور كاشفات الأذرع يعرضن زينتهن التي لا يحل الاطلاع عليها الا لمحارمن الذين ذكرهم الله على كل غاد ورائح ولا يباين أن يختلطن بالرجال اختلاطاً معيياً مذرباً ويكلمن النسا على مرأى ومسمع من الناس بدون أن يحظر على بال واحدة منهن شيء من الحياء الذي كان شعار آبائهن وأمهاتهن من قبل . ولا يعرفن للعفة التي عليها صيانة الشرف وحفظ الذرية معنى ولا يدركن ان هذا العمل

يقضى على بناتهم واخوتهن وأقربائهن شر قضاء لأن الشبان الذين يجدون حاجتهم من أولئك العاهرات ينصرفون عن الزواج ويكتفون بالسفاح فتبور الفتيات ويصبحن عاطلات معرضات للخنا والفساد فأى شر بعد هذا الذى يفعلنه هؤلاء الفاجرات وأى ضرر بعد هذا الذى يلحقنه بنظام العمران وأى فساد بعد ذلك الفساد الذى يقضى على الادب والفضيلة ويعرض الفتيان والفتيات لأسوأ المحن وشر البلاء كما ينسا ذلك فى مبحث الزنا واللواط . ألا ان ذلك لما تسيل من أجله العبرات وتذوب من أجله الاكباد . وبما يصاعف البلاء ويزيد فى المصيبة أننا قدمنا بقوم يظنون أن الفضيلة كل الفضيلة فى الاقتداء بغيرهم من الامم التى أتيج لها من القوة المادية ما يكون لها به السلطان على الضعاف فلا ينفكون عن تحريض النساء على الخروج عن الآداب باسم الحرية والمدنية ومنهم من يبالغ فى النكاي بالفضيلة فيجعل التهلك فى أرذل حالاته فضيلة من الفضائل وعلماء العلوم التى يجب أن تطلب ومن ذلك — الرقص — فانه أصبح عند هؤلاء فنا من الفنون التى يجب على المرأة أن تتعلمه وما عليها من بأس أن تحاصر من تشاء من الشبان وتلصق جسمها بجسمه وما عليها من حرج اذا وضعت سوانها على سوانته على مرأى ومسمع من بعليها ان كان لها بعل وما عليها من عار اذا اختلت بذلك الشاب الذى رقص معها فى أى وقت شاءت . فهل بعد ذلك من فضيحة تقضى على الفضيلة شر قضاء الا نبؤنا أيها الظرفاء المتعلمون هل هذه الحالة هى التى تقيد المرأة فى حياتها المنزلية المستقبلية فتعلم منها كيف تسهر على تربية ابنائها وبناتها تربية تنفعهم وتنفع قومهم هل هذه الحالة هى التى تعلم المرأة كيف تصون عرضها وتحفظ نفسها وتكون مثالا حسنا لبناتها وبنيتها . هل هذه الحالة هى التى تقضى على المرأة باحترام زوجها وعدم التطلع الى غيره ايا كان حاله فتدوم بينها الالفة وتستمر علاقة الزوجية مصونة عن العبث أو هى على العكس من كل هذا تمرن المرأة على اللهو والخلاعة والانصراف عن تدبير منزلها وتلفت نظرها الى غير زوجها ان خالت فيه ميزة من جمال أو مال أو نحوهما وتكون مثالا سيئا لاسرتها وعارا على ذويها . لعلمكم تقولون ان التربية الاخلاقية شئ والفنون الجميلة شئ آخر فمن كانت مصونة لا يؤثر فيها ذلك شئ . وهذا هو الذى نعييه عليكم ونؤاخذكم به لانكم بذلك تجهلون يئسكم التى تعيشون فيها وتحكمون على قومكم بغير أخلاقهم وطباعهم جهلا منكم بصفات النفوس وطبائع الناس بل هو جهل أو تجاهل بالمشاهد المحس — المحسوس — الذى لا ينبغي أن يجهله أحد منكم . فكم رأينا أن التهلك جرّ الى فساد كثير من الاسر وأضاع حياة كثير من القبائل وقاد كثيرا من الفتيات والفتيان الى المجاهرة بالفسق والخروج على أهلهم وذويهم . وكم رأينا مصارع الفضيلة على مسارح الرقص . وكم شاهدنا حرمة الآداب تنمك فى سبيل ذلك التهلك الذى يسمونه مدنية وحرية . وكم جرّ ذلك من أمراض أخلاقية وبدنية على الفتيان والفتيات . فهل تخفى ذلك على هؤلاء الذين يقولون ان التهلك والخلاعة والمجون لاعلاقة لها بالخنا والفساد ألا ان ذلك لجهل عظيم فان أسباب الشر تنتج الشر وأسباب الخير تنتج الخير فمن يتمسك بأسباب الفساد يلق الفساد بلا نزاع .

وأعجب من هذا وأشد مصيبة أنهم يتوسلون فى اغراء النساء على الخروج عن الآداب بأن المرأة شريكة الرجل فى الحياة فلا يصح أن يكون هو طليقا حراً وهى رهينة منزلها وأسيرة مخدعها

ويستدلون على انحطاط الأمة وعدم تقدمها في المدنية بعدم رقي المرأة وجهلها. وفي هذا غاية العجب فإن هؤلاء كما أنهم يعتقدون أن الفساد وانتهاك حرمان الفضيلة والخروج على الآداب والأخلاق سبب في رقي الأمم وسعادتها فيأثمها الناس بربكم قولوا لنا مال للرق وما لرقص النساء على المسارح وتبرجهن في الطرق ومغازلة الرجال والشبان ما للرق وما ل تعرض عفاف المرأة وصيانة عرضها للفساد. ما لرق الأمم وخروج المرأة عن كل قيد من قيود الحياء. ومن قال إن الرجل طليق لأخرج عليه فيما يأتيه من الأعمال لا ريب في أن الرجل كالمرأة تماماً في جانب الفضيلة والزينة فما هو محرم عليه محرم عليها وما هو واجب عليه واجب عليها فكما لا يحل لها أن تضع عفافها كذلك لا يحل له. وكما يحرم عليها اجتناب الوسائل التي تفضي إلى ارتكاب الجرائم والمواقف كذلك يحرم عليه اجتنابها فإذا قلنا للمرأة لا تبرجي ولا تنتهكي حرمان الفضيلة ولا تخاطبي من يطمع في عفافك وتجنبي وسائل الفساد كذلك نقول للرجل غص بصره عما لا يحل لك واجتنب كل ما يؤدي الناس في أعراضهم واحذر أن تطمع في سلب عفاف امرأة لا تملك عصمتها ولا تتوصل بأي وسيلة تفضي إلى ذلك وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة) فلا فرق بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية إنما لكل منهما وظيفة يؤديها في هذه الحياة كاملة ولكل منهما طبيعة يترتب عليها آثار غير طبيعة الآخر وعلى كل فرد من الأفراد سواء كان رجلاً أو امرأة أن يتمسك بكل ما يترتب عليه صالح ويتجنب كل ما يترتب عليه سوء فالشريعة إنما تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنهى عن التمسك بالأسباب التي توصل إلى ذلك. فإذا وجد بين الناس من يقول إن الفحشاء والزنا لذات لا يصح تركها هؤلاء قد خرجوا عن موازين الإنسانية وأصبحوا كالأنعام لا هم لهم إلا اللذات فلا يغارون على أعراضهم ولا يخافون على بناتهم ونسائهم كما ينال في مبحث الزنا. وهؤلاء لا فائدة من إرشادهم ولا جزاء لهم إلا أن يبدهم الله من المجتمع ويحفظه من شرهم. وبعد — فإن الإسلام قد أمر النساء أن يتعلن ما لهن وما عليهن من الحقوق والواجبات فمهما أمكن ذلك بالآداب والحشمة والوقار وعدم التعرض للفساد كان ضرورياً ولقد كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين من أعز الأمم قدراً وأرفعهم مكانة وكانت نساء المسلمين يومئذ مهابات مثقفات متمسكات بكتابات الله تعالى فلا يتبرجن ولا يتهنكن ولا يرقصن على المسارح ولا يطمعن أحد في عفافهن فهل كان ذلك جوداً قضى بتأخير المسلمين وانحطاطهم أو كان المسلمون يومئذ من أعز الأمم قدراً وأعلى مكانة وقد قهروا أشد الأمم يومئذ بطشاً وأكبرهم قوة فهزموا الفرس والرومان وقضوا عليهما قضاء برماً بسبب تمسكهم بالفضائل الدينية وتجنّبهم الرذائل الأخلاقية وصيانة أعراضهم ونسائهم من الفساد فن كان مسلماً يؤمن بالله ورسوله فليقتد بهؤلاء الكرام البررة وإلا فليعرض للهلاك والدمار في الدنيا والآخرة وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

هذا بعض ما يجاهر به النساء من العصيان والخروج عن الآداب والحياء أما الرجال فانهم لا يبالون بمهاجمة النساء وتحريضهن على الفساد واغرائهن على الاستمرار على حالهن بدون خوف على نسائهم وبناتهم كما تقدم في مبحث الزنا وهم مع ذلك لا يبالون من معاقرة الخور جهاراً ولا يستكفون عن

كسب المال من أى طريق كان ولو كان فيه هلاكهم وفضيحتهم ولا يستحيون من الغش والخديعة والميسر والزور ولا يباليون بارتكاب الجرائم علانية بدون حياء ولا وجل وهذا غاية الفساد ونهاية الضلال فلا هم يتأثرون بالمواعظ ولا هم يزدجرون بالحوادث ولا هم يخافون من عقوبات دنيوية وامراض جثمانية ولا هم يخشون عذاب الله وعقابه يوم لا ينفع مال ولا بنون فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصبر

هو من أجل صفات النفس وأعلاها تدرأ فقد أتى الله تعالى عليه في أكثر من سبعين موضعاً من كتابه العزيز ووردت أحاديث كثيرة في الحث على الصبر ومدح الصابرين كما سيرد عليك أما حقيقة الصبر لغة فهي حبس النفس عن الجزع أى منعها من الاستسلام له كي لا يترتب عليه فعل ما لا ينبغي وليس الغرض منه طرخ الجزع رأساً لأنه أمر طبيعي لا يمكن الإنكار عنه وظاهر أن المعنى اللغوي قاصر على الصبر عند المصائب . أما في نظر الدين فهو أعم من ذلك لأنه حبس النفس عن الجزع ومنعها عن محارم الله . وإلزامها بأداء فرائضه يدل لذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله . وصبر على محارم الله . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى وقد رواه ابن أبي الدنيا من حديث علي كرم الله وجهه ويمكن أن يجعل الصبر بالمعنى اللغوي شاملاً للأمور الثلاثة لأن حبس النفس عن الجزع لازم لمنعها عما تنوق إليه من اللذات والشهوات فإذا ما منعها عن شهوة محرمة محبوبه لديه جزعت لذلك فمنعها عن الجزع على الشهوة المحرمة هو الصبر وكذلك هو لازم لأداء الفرائض والتكاليف لأن فيها مشقة على النفس فمن داوم على أدائها تجرع نفسه من المشقة فحبسها عن الجزع لذلك هو الصبر . على أن حبس النفس عن الجزع عند المصيبة مختص باسم الصبر فلا يطلق عليه اسم آخر فالصبر على المصيبة يضاده الجزع والملاح . وأما منع النفس عن الشهوات المحرمة فإنه يطلق عليه اسم الصبر وغيره فمنعها من شهوة البطن والفرج أو المال المحرمة كما يسمى صبراً يسمى أيضاً عفة ومنعها عن الجزع عند لقاء العدو كما يسمى صبراً يسمى أيضاً شجاعة ويقابله الجبن . ومنعها عن التعدي على الغير عند ثورة الغضب كما يسمى صبراً يسمى أيضاً حلمًا وشجاعة كما تقدم يسانه ويقابله التذمر والطيش . ومنعها من افشاء حديث لم يؤذن في افشائه كما يسمى صبراً يسمى كتمان السر . ومنعها من الاسراف في اللذات الضارة كما يسمى صبراً يسمى زهداً ويقابله الشره ومنعها من الغرور بالثروة والمال كما يسمى صبراً يسمى ضبط النفس ويقابله البطر . وهكذا فكل شيء أمر الله به أو نهى عنه فتلقيه الانسان بالقبول والرضى ظاهراً وباطناً وعمل به ان كان أمراً واجتنبه ان كلن نهياً فهو صبر وان كان له اسم آخر ولهذا قد ورد في بعض الآثار ان الصبر هو الدين كله

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه ثبات باعث الدين أمام باعث الهوى . فأما باعث الدين فهو قدرة العقل على قهر الشهوة والغضب وهذه القدرة تحصل له من النظر في قضايا الدين والعمل بها . وأما باعث الهوى فهو الشهوة والغضب لأنهما بطغيانهما يقودان المرء إلى ما لا يقره الدين ولا يرضاه العقل فإذا ثبت العقل أمام الشهوة والغضب وقام بوظيفته على الوجه المطلوب فلا يجعل لهما عليه سلطاناً ولا يسمح لهما بالطغيان فينقاد لهما صاغراً بل يكون هو الأمر الناهي فيسلك بهما سبيل الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط فانه بذلك يستطيع أن يظفر بالصبر على حرمان الله وطاعته وأن يحبس نفسه عن الجزع عند المصيبة فلا يستفزها الجزع إلى قول أو عمل ما لا يرضاه دينه مهما كان لنفسه فيه إثم . ومن ذلك الصبر على إيذاء الناس إياه فانه إذا أغضبه أحد بقول أو عمل فإن غضبه لا يطغى عليه فيجعله على تعدى حدود الله بل يكظم غضبه حتى يجرى على سنن الدين من القصاص العادل أو العفو . وكان فيه مصالحة كل شئ في تقدم . وقد ورد في الكتاب الكريم ما يشير لذلك قال تعالى (ولمن انصبر بعد ضيقه فأولئك ما عندهم من سهل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . فقله مقاوم الحق في كل حين العادل . وإذا صبر على الإساءة وغفر لمن أساء إليه ذنبه فإن ذلك من الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل أحد لشرفها كما يأتي قريباً .

هذا وقد فسر الصبر بتفاسير كثيرة غير هذا . منها أنه الثبات على الكتاب والسنة . ومنها أنه ترك الشكوى . ومنها أنه هو الاستعانة بالله . وقال بعضهم الصبر أن لا تفرق بين حال النعمة والحنة مع سكون إلى طرفيهما . وقال بعضهم هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل غير ذلك وما قدمناه لك هو أجمعها ويقرب منه تعريفه بأنه الثبات على الكتاب والسنة لأن من ثبت عليهما فقد صبر على المصائب وعلى أداء الطاعات واجتناب المحرمات

واعلم أن اظهار البلوى . إما أن يكون لله تعالى كما قال أيوب عليه السلام (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وهذا لا ينافي الصبر . وإما أن يكون لغير الله تعالى فإن كان لحاجة كشرح العلة للطبيب أو بيان المظلمة لمن يقدر على رفعها فانه لا ينافي الصبر أيضاً مادام راضياً بقضاء الله تعالى فلا يضجر ولا يتبرم مما ينزل به من البلاء . فإن اشتكى لغير الله بدون فائدة تبرماً وضجراً لم يكن من الصابرين ولم يستفد من مصيبتهم سوى عذاب الدنيا وسيئاً عن ضجره من قضاء الله يوم القيامة خصوصاً إذا كانت شكواه مصحوبة ببعض العبارات الجريئة على الله تعالى فانه يكون من أتعب الحق لأنه بذلك يشكو الاله القادر الذي يرحم للعبد الضعيف الذي لا يغني عنه شيئاً

أقسام الصبر

قد علمت أن الصبر في نظر الدين ينقسم إلى ثلاثة أقسام . صبر على الطاعة . وصبر على المعصية . وصبر على المصيبة . وهذا التقسيم بالنسبة لما يتعلق به الصبر . وقد ينقسم باعتبار القوة والضعف

الى ثلاثة أقسام أيضا . لأن سلطة العقل ان كانت كاملة بحيث يتغلب بها دائما على الشهوة والغضب كان الصبر في هذه الحالة على أتم حالاته . وانما يصل الى هذه المرتبة الصديقون المقربون . وان تفهقرت سلطة العقل أمام الشهوة والغضب في معظم الأحيان كان الصبر في أسفل درجاته . وهذه حالة الغافلين الذين تملكهم شهواتهم وخلت قلوبهم من عظمة خالقهم . وان كانت الغلبة بين المتنازعين سجالاتا بأن تغلبت سلطة العقل مرة . وتغلبت سلطة الشهوة مرة أخرى كان الصبر في وسط حالاته وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر شينا عسى الله أن يتوب عليهم لأن في جهاد الشهوة وقهرها في كثير من المواطن رجوعاً الى الله تعالى وهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة فيقبل الحسنات ويعفو عن السيئات

آثار الصبر

ومنافعه

لأربب في أن الصبر بجميع أقسامه ممدوح في المواطن كلها الا في المواطن التي تنتهك فيها حرمان الدين . والفضيلة . ويخذل فيها الحق فان الصبر في هذه الحالة يكون جبنا . فالصبر حسن جميل سواء تعلق بأمر خطير أو حقير ولكنه يكون أجمل شأنا وأعظم أجراً اذا كان متعلقا بمصيبة عظيمة كفقد ولد نافع . أو كان متعلقا بشهوة لم تستطع النفوس البشرية أن تكف عنها بسهولة . كما اذا دعت امرأة ذات مال وجمال لنفسها فصبر على شهوته وقال انى أخاف الله . ومثل هذا قد اختصه الله بميزة عظيمة وهي أن يكون في ظله يوم لا ظل الا ظله . كما تقدم في الحديث .

ومن هذا تعلم أن ماورد من التفاضل بين الصبر وهو أن الصبر على أداء الفرائض أقل درجة من الصبر على المحرمات وأن الصبر على المحرمات أقل درجة من الصبر على المصائب . ينبغى أن يحمل على مايناه لك . لأن التفاضل في الواقع انما يكون بالنسبة لعظام الأمور التي تظهر فيها تضحية الشهوات ويتجلى عندها نبات العقل ومثانة الدين . على أن الصبر على صفات الأمور قد يكون له فضل عظيم لأن النفس اذا تعودته فانه يسهل عليها الصبر على عظام الأمور . فالصبر كله خير كما ستعرفه فيما سند كره لك مفصلا

فاما القسم الأول . وهو الصبر على المصيبة فانه يتناول الصبر على موث الاحباب من الاهل والأصدقاء كما يتناول الصبر على البؤس والفقر وضياح الأموال ولقاء الاعداء في ميادين القتال ونحوها . والصبر على السقم والاوراجاع . وإيذاء الاهل والجيران وغيرهم واحتمال الآلام كالضرب الشديد والمرض العظيم والجراحة ونحوها . وقد أثنى الله على الصابرين عند المصائب وأعد لهم جزاء حسنا وأجرأ كبيرا .

قال تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)
فالبأساء . الفقر والبؤس . والضراء المرض . والبأس القتال . فعنى الآية وأمدح الصابرين في حال

الفقر والمرض وحين قتال الاعداء . ولقد وصفهم الله بأنهم الصادقون في إيمانهم بربهم الموقنون باليوم الآخر فلا يبالون بمحادثات الدنيا الزائلة . المنتقون في أعمالهم . وكفى بذلك مدحاً من رب العزة الذي بيده ما مكنوت كل شيء . وقال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فن ابتلاه الله تعالى بنقص في ماله أو منعه شيئاً من شهوات الدنيا ولذاتها وعجز عن تحصيله بالوسائل المشروعة أو قبض إليه نفساً عزيزة لديه أو أخافه من عدو فانه لادواء له إلا الصبر على ما أصابه . فاذا صبر المبتلى على مصيبته وعمل بقول ربه عز وجل فقد هانت عليه البلوى وضاع أثرها فاستراح من عذابها في الدنيا وفاز في الآخرة بالجزاء الحسن .

فالفقير الذي لا تبهره المناظر الكاذبة . ولا يذهب بلبه متاع الحياة الدنيا وزينتها ولا يحزنه مالا يستطيع الوصول إليه من ذلك المتاع الفاني بل يطمئن قلبه إلى ما قدر له في هذه الحياة من تعب ونصب ويرضى بما قسم له فلا يستخط ولا يفعل حراماً فانه لا بد أن يجعل الله له من أمره فرجاً في حياته الدنيا . كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من ذمته من حيث لا يحتسب) وهو في رحمة الله ورضوانه يوم الخلود . أما الفقير الذي يزين له الشيطان والهوى ما في أبدي الناس ففسد قلبه بالوساوس الضارة والاماني الكاذبة والاحلام الباطلة فيحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يبالي أن يتمسك بأي وسيلة من الوسائل المخرمة في الوصول إلى شهوة لن تغني عنه شيئاً ولن تسد عنه فقره لهو من أنعم خالق الله وأضلهم وأشقامهم لانه بعمله هذا يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

وكما أن الفقير محتاج للصبر على فقره . فكذلك الغني محتاج للصبر على غناه لانه مكلف بحقوق وواجبات لا يسهل على النفس فعلها من زكاة مال وإغاثة الملهوف وإنفاق من غير تبذير ولا تقدير الخ ما تقدم في مباحث المال والا كان بطراً يعرض صاحبه للدمار . وكذلك من يصبر على فقد عزيز لديه فإن مصيبته تهون عليه في الدنيا وله على ذلك الجزاء في الآخرة . فن مات له حبيب كان من واجبه أن يرجع إلى الله تعالى وأن يعلم أن كل شيء في هذه الحياة صائر الزوال فليس من الحكمة أن يخرج المرء عن آداب دينه ويعرض نفسه لسخط ربه من أجل مصيبة مهما عظم خطبها . لان الانسان لم يخلق في هذه الحياة إلا هدفاً للمصائب ورمية للأحزان وليس هو وحده الذي خص بالمصائب بل كل الناس في ذلك سواء أولهم وآخرهم كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم . يتسلم الله تعالى بأكبر المصائب وأشد المحن من ألم ومرض وموت . ومتى كان الحكم عاماً كان الصبر عليه أهون . وليس من اللائق بالمسلم أن يغفل عن هذه الحقائق ويفعل ما لا يقره الدين ولا يرضاه العقل من لطم الوجه وشق الجيب والنطق بعبارات الكفر والهديان . وقد يستخف الجزع بعض ضعاف النفوس فيرتكبون الجرائم من حيث لا يشعرون . وقد يذهب عقل بعضهم ويصبح مجنوناً فان كل ذلك غفلة عن نظام الله في خلقه وطمع في المحال فان المنية لن تترك أحداً وأن الضيم والشقاء في هذه الحياة لادافع له . ويعجنني في ذلك قول بعضهم :

من رأيت المنون خلدن أم * من ذا عليه من أن يضام خفير
نعم ان الجزع أمر طبعى فى الانسان كما ذكرنا ولكن الذى يكلف به المرء انما هو الكف
عن فعل مالا يليق والتسالىة بمصائب الناس وأرزائهم والتأدب بأداب الدين فاذا وجد بعد ذلك
أثرا للجزع والحزن فى نفسه فانه لا يؤخذ عليه لانه يكون قد فعل ما هو داخل تحت اختياره .
على أن من يعلم أنه هالك لامحالة وأنه لا بد أن يرجع الى ربه ويأبى بمات اما عاجلا أو آجلا
فان حزنه يذهب سريعا وجزعه ينتهى فوراً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يتصبر يصبره الله » من حديث رواه البخارى ومسلم
ومعناه أن من يتكلف الصبر ويعمل بوصايا الدين الواردة فى شأنه فان الله يمنحه الصبر ويسهل له
تحصيله . وكذلك من يصبر عند الخوف من لقاء العدو فانه يستطيع بالصبر أن يثبت فى نهاية أمره
وأن لا يضيع شجاعته من أجل خوفه وفزع فيخدم بذلك دينه وأمته ويظفر بشاء الناس ورضاء الله
فى الدنيا والآخرة .

فأجر الصابرين عظيم فى الدنيا والآخرة كما يستفاد من الآية الكريمة فانها تبشرهم
بأمور ثلاثة .

أولها : صلوات الله عليهم والصلوة من الله على عباده الرحمة وهو الكثير الشائع عند
أهل اللغة وقد تطلق على المغفرة والثناء وهو المناسب هنا حتى لا يتكرر مع قوله تعالى (ورحمة) .
ثانيها الرحمة . وقد عرفت بما تقدم انها بالنسبة لله تعالى صفة تناسب ذاته التى ليس كمثله شئ وبها
ينعم الله على عباده بنعمه فى الدنيا والآخرة فيمددهم بما يحتاجون اليه فى حياتهم الاولى ويمحو عنهم
سيئاتهم ويدخلهم جناته فى الحياة الآخرة . ثالثها الاهتداء . وهو الفوز بالمطالب الدنيوية
والآخروية والى ذلك يشير قول سيدنا عمر رضى الله عنه - نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين -
يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة . وبالعلاوة الهدى . رواه الحاكم وغيره . والعدل بكسر العين الحل
الذى يوضع على البعير مقابل حمل آخر . فاخلان هما العدلان والعلاوة بكسر العين ما يوضع فوق
الحملين فهو قد شبه الصلاة والرحمة بالحملين وشبه الاهتداء بالعلاوة التى فوقهما . ومتعلق الدشارة
محذوف مجمل . أى بشرهم يامن يتأتى منه البشارة باحسن البشائر وأجائها وقد نصله الله تعالى بقوله
(أولئك عليهم صلوات) الخ

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال أخبر الله عز وجل
أن المسلم اذا سلم لأمر الله فاسترجع عند المصيبة . كتب له ثلاث خصال من الخير . الصلاة من الله
والرحمة . وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرجع عند المصيبة
جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفا يرضاه » رواه الطبرانى . وعن أبى موسى رضى الله
عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة قبضتم ولد
عبدى فيقولون نعم فيقول قبضتم رة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك

واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد » رواه ابن حبان في صحيحه .
ورواه الترمذى

وروى في الصحيح أن الرميصاء أم سليم لما مات ولدها من زوجها ابى طلحة فقالت لما دخل لا يذكر أحد ذلك لآبى طلحة قيل فلما جاء وسأل عن ولده قالت هو أسكن ما كان فظن أنه عوفى وقام وأكل وشرب وزينت له وتطيت له فنام معها وأصاب معها فلما أصبحت قالت له احتسب ولدك فذكر ذلك لآبى عليه السلام فقال « بارك الله لكما في ليلتكما فجاءت بولد هو عبد الله بن أبى طلحة فأنجب ورزق اولادا قرؤوا القرآن منهم عشرة كملا وروى جابر بن عبد الله أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فإذا بالرميصاء امرأة ابى طلحة »

فانظر الى الجزاء العظيم فلقد نالت أجرها في الدنيا بما رزقها الله من بنين نجباء وستكون في جنات النعيم يوم القيامة لأن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيها وقوله صدق لاشك فيه وهو الصادق الأمين في كل حال . وكذلك من يصبر على مرض يصيبه فإن الله تعالى يشبه عليه ويكفر عنه من سيئاته سواء كان قليلا أو كثيرا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيئاته رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرطهما ورواه غيرهما وقال عليه الصلاة والسلام ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله له بها من خطاياها رواه البخارى ومسلم . وقال عليه الصلاة والسلام إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقبلا صحيحا رواه البخارى وغيره وقال عليه السلام إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منها الجنة يريد عينيه رواه البخارى وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام إن الله ليبلى عبده بالسقم حتى يكفر عنه ذلك كل ذنب رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما

ولاريب في أن ذلك الجزاء منوط بالصبر والعمل على ما يرضى الله تعالى وقد ورد في بعض الاحاديث الصحيحة أن الله تعالى يبدل الصابر على المرض الذى لا يشكو فيه لموتده عافية خيرا مما كان عابيا فإذا قبضه اليه ادخله الجنة . وكل هذا دليل على عظم قدر الصبر على المصيبة في النفس والولد والمال وعلى علو منزلة الصابرين عند ربهم وعلى ما يدخره الله لهم من الجزاء الاوفى فان من شئى عليه ربه في كتابه الكريم ويشره برحمة منه ومغفرة واهتداء . ويخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعته لهو جدير بأن يكون من المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكذلك الصبر على أذى الناس وظلمهم اذا كان لا يستطيع الانتصار منهم أو كان يستطيع ردهم والانتصار منهم ولكنه غفى عنهم وغفر لهم إذا كانت العفو يصلحهم ولم يكن الذنب متعلقا بعرض أو دين كما تقدم غير مرة فمن صبر على ظلم الناس وإيذائهم فإن الله تعالى كفيل بنصره في الدنيا والآخرة وقد مدح الله الصبر في هذه الحالة فقال تعالى (لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)
الابتلاء بمعنى التجربة التى تعلم بها حقيقة لم تكن معلومة محال على الله تعالى فعنى لتبلون لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الصبر والثبات على الحق وإن كان لا يخفى على الله خافية من أمركم

في حاضرهم ومستقبلهم والابتلاء في الأموال بالفرائض التي فرضها الله عليهم وبما يحتاجها من الحوادث وفي الأنفس بالقتل والأسر والجراح وفقد الأهل والأحباب والمخاوف وغير ذلك وقوله - من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - هم اليهود والنصارى - ومن الذين أشركوا - هم كفار العرب - أذى كثيرا - كالطعن في الدين وتخطئة من آمن والافتراء على الله تعالى ورسوله وقوله تعالى - فان ذلك من عزم الأمور - مأخوذ من قولهم عزمتم على الأمر إذا عقدت القلب على فعله ووطنت النفس عليه ويصح نسبة العزم إلى الله تعالى على أن يكون بمعنى الإرادة ومنه قولهم عزمات الله تعالى بمعنى إرادته فعزم الأمور أي الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل عاقل لما فيها من الشرف والمكانة الرفيعة وقال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتنونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلا) وقال تعالى وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وفي هذه الآية دلالة على أن من قدر على أن يتصبر لنفسه فعليه أن لا يتجاوز حقه فيعاقب باكثر مما عوقب به وإذا صبر وترك القصاص لهو خير له إذا كان يترتب عليه خير . أما إذا كان يترتب على العفو شر فان القصاص يكون لازما كما تقدم

وأما القسم الثاني وهو الصبر على المعاصي فانه لازم لسعادة الانسان في دنياه وآخرته فان الله سبحانه نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا في هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين لا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ولا يعتدى أحدهم على غيره في ماله وبدنه ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون في الأرض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ولا يقذف ولا يشهد الزور ولا يؤذى به أحدا من خلق الله ولا ينطق بالفحش ولا يمزح إلا بالحق ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ولا يجادل بالباطل . ولا يخاصم ليقطع حق غيره فانه بذلك يتقى آفات اللسان التي تفضي بالمرء إلى الهلاك في الدنيا والآخرة . ومن يصبر على حفظ فرجه فلا يستعمله إلا فيما أحله الله له فقد نجا من شر غوائل الزنا واللواط وكان آمينا على سلامة عرضه وحفظه من الضياع . ومن صبر عند غضه فلا يبطش بيده ولا يهجو بلسانه ولا يحقد بقلبه فقد سلم من مظالم خلق الله تعالى وكان مسلما حقا كما قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ومن صبر على ما لا يملكه من الشهوات واللذات فقد نجا من ألم الحسد والحقد وظفر بسكون النفس وراحتها وهكذا في كل ما نهى الله عنه سواء كان متعلقا بحقوقه أو حقوق عباده

وأما القسم الثالث وهو الصبر على أداء ما فرض الله تعالى فهو مرتبط بالصبر عما نهى عنه فانه سبحانه قد أمر عباده بالفضائل ونهاهم عن الرذائل قال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فمن صبر على عبادته تعالى من صلاة وصيام وحج فقد طهر قلبه وتنزه عن الفحشاء . ومن صبر على إيتاء الزكاة وبر الوالدين وصلة الأرحام ومواساة البؤساء وإعانة الفقراء وتربية الأيتام وأداء حقوق الجوار والإحسان إلى الناس وغير ذلك

من الواجبات والحقوق التي سيأتي بيانها في الجزء الثاني ان شاء الله فانه بذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من عنائها ويظفر في الآخرة بالسعادة الكاملة من ملك دائم ونعيم مقيم من أجل ذلك كان الصبر من أحسن صفات النفس وأعظمها ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » من حديث رواه البخاري ومسلم . وقال تعالى (وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وقال تعالى (واصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

اصلاح خطأ

وقع أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية لا تخفى على حضرات القراء . ولكننا رأينا إثبات المصحح منها هنا إتماماً للفائدة .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٩	٤	طبيعى	طبيعية
٣٦	٣٠	مدخوا	خدموا
٣٧	٢١	شقاؤها	شقائها
٤٣	١٣	بذلك آثما	بذلك يكون
« «	١٤	يكون يكون	يكون
٥٠	٢٨	لم يجرى	لم يجر
٥٢	١١	وإن كانت	إن كانت
٦٢	١٤	منعهم	منهم
٦٣	٧	عشر ألف	عشر ألفاً
« «	٢٨	نسكفيكه	نسكفيكه
٦٤	١	لامر	الامر
« «	٤	من نشته	نشأته
٦٥	١	لايثنى	لا يثنى
٧٣	١٥	المسيهجة	المستهجنة
٧٤	١٢	أضرب للسهم	أضرب للهام
٧٥	٨	الحلقة	الحلقية
٨٢	١١	الميراث	المرانة
٨٥	٢٧	داخل	داخلان
١١٣	٢٠	الدواء	الدوائر
« « ٤	٢٣	المغرورون	المغرورين
١٢٣	٤	يخطر	يحظر
١٢٦	٢٣	عليها	عليهما
١٢٧	١٥	العالين	العادين
« « «	١٧	السريرة العلانية	السريرة والعلانية
١٥١	٣٠	ماهم وما عليهم	ماهن وما عليهن

سقط من صحيفة (٥٩) سطر (١٧) كلمات « والذي نفسى يده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله »